المتهم

روايات

كرم صابر

صفصافة

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE

www.sefsafa.com

المتهم

كرم صابر

صفصافة 2011

"المُتَّهم"

رواية

كرم صابر

رواية: المتهم
كرم صابر
الطبعة الأولى يوليو ٢٠١١
اطبعة الثانية: ٢٠١٢
رقم الإيداع: ٢٠١١/٨٥١٣

الناشر : محمد البعلى
المستشار الفنى: أحمد الزغبى
الآراء الواردة فى هذا الكتاب لا تعتبر بالضرورة عن رأى دار صفصافة.

دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات
٥ش المسجد الأقصى – من ش المنشية – الجيزة – ج م ع.

كرم صابر: أديب مصرى نشأ فى مدينة الوراق وقت أن كانت قرية يعمل أهلها بالزراعة قبل أن يدمجها الزحف العمرانى بالقاهرة ، وبدأ العمل بالمحاماة عام ١٩٨٩ ؛ نشر العديد من الأعمال السردية منها المتهم وأين الله ورائحة الأنوثة وعشق الحياة وفؤاد المدينة وطائر النسيان ومريم العذراء وكلاب السكك.

طبعة إليكترونية : ٢٠١٥

تَوْضِيحٌ وَإِهْدَاء

وقائع هذه الجريمة السرَّية

يُعلن سَرْدُهَا الآن

مع عدم ذِكْرِ الأسماء الحقيقيَّة لمرتكبيها ، وكُلُّ الرّحمةِ والحُب للجد العجوز

الذى لولاه لارتُكبت

جريمة قتل خمسين شخصًا ، أو ما يزيد

إنَّ هذا الرجل هو جدِّى

"إبراهيم القصَّاص"

القسم الأول :المساومة

الحقد

أمشى سعيداً وسط الجميع ، يبتهجون برؤيتى ، ينادوننى بالأمل ، أعاشرهم بقلبى، أتناول معهم الخبز المقدّس ، يجتمعون حولى يستلهمون البركة ، مشينا سنين ، نأكل ونقتسم الحبَّ آخر النهار ، لم أغشهم قط ، كنت الوحيد الذى تحمَّل مسئولية إنتاج البراءة والأمل الذى يطل عليهم كلَّ صباح ، فيغترفون منه ليستكملوا المسيرة .

عملوا بإخلاص حين ملئت جيوبهم بالودَّ والعشق ، لم يتمرّدوا يومًا على نصيبهم ، كانوا يمتنون دائمًا بوجهى ويمدوننى بالرَّضا ، بدورى أستكمل عملى بإخلاص ، عاشرونى كأبٍ وخال ، حكوا جميعًا أحزانهم ، هوَّنتُ عليهم الدنيا ، يدى التى تُمدُّ الخير كانت كفيلة بدوام الأمل فى الحارة ، دون أن يدروا أنّ نصيبهم العادل من البراءة هو السّبب فى كل هذه البهجة.

فى اليوم الذى قررّت أخذ نصيبى ، اندهشوا وتمرّدوا وقالوا : "كيف يمكن ذلك؟ البراءة لنا والحبُّ لك ، هذا هو اتفاقنا منذ البداية ، لماذا تغيّر القانون؟ " سَرقتُ الدمعة التى كانت تطيّب خاطرهم ، فقرّروا تقطيع لحمى والتهام عظمى لأننى الغادر!

عقدوا المحاكمة بالميدان دون أن يتذكّر أحدهم كلمةً طيبة قلتها فى يومٍ صعب ، لم يكن بقلوبهم رحمة ، فالبراءة يجب أن يتسلّمها المجرمون وإلاّ انقلبت الدّنيا وقطعوا عظام العاصى دون أن تأخذهم شفقة ، لم يعلموا أنّ الغادر كان يدفع الثمن من نبض قلبه وروحه ، ولمّا نضب المعين قال : " ليس عندى ما أعطيه لكم ! "

بدأت المأساة التى حُوكم فيها عن كلَّ جرائمه ، أجبروه على دفع ثمن عطائه ، حرّروه من القيود ، اليوم ليس لأحدٍ على وجه الأرض حق عليه .

قالو صباح محاكمة الميدان ، وهم يوثّقون يديه ويغلقون فمه : "اِحكِ عن ظلمك وجبروتك وغدرك ؛ لتشفى غليلنا وتُبرّئ ذمتنا من جرائمك" .

"اِحكِ وسط الجميع عن قسوتك واستيلائك على كنز البراءة ، أخفيتها بعيدًا عنَّا لنموت عطشى وأسرى حقدك ، لتثبت للجميع أنّك السّبب فى تجويع أسرنا وسرقة غموسنا وأجمل ما فينا ، بعيونك النَّاعمة لنشفق عليك ونقتلك قتلة رحيمة ، احكِ عن نشر جبروتك كلّ صباحٍ ، وأنت تسلبنا البراءة لتستولى عليها وحدك" .

"كيف استطعت أن تقولها صباح الأمس ، ليس عندى ما أُعطيه ، ورفضت دفع الثمن ، حرمتنا لحظات الدَّفء والحب والامتنان والعشق ؛ لتفوز به وحدك يا غادر" .

"اهمس بجسدك النّحيل لتُخرجنا من الحقد ، وننعم بالثمن وننشر الخوف ، ونشير عليك كلّما رأيناك ، أو لمحنا شجرة وارفة ، أو عيون قطة عطوفة لنقول لأنفسنا: "سرق المتهم روحنا دون رحمة ، وتركنا نجترّ الحقد والعزلة" .

"اِحك بصدقٍ عن روائح وجوهنا ، وهى تُمدُّك بالأمل ، وأنت تلتهمه وتعطينا بقايا ضميرك" .

هدد المجتمعون بإعلان حكم الإعدام قبل الليل وإلاّ نهشوا قلبه ، صرخوا فى كبيرهم ؛ ليعلن الحكم دون انتظار عدالة المحكمة .

بصقوا على وجهه ، وقالوا : "لا تدافع عن نفسك ، أنت تعلم ما يجول بخاطرنا تجاهك ، لن يعفيك من حقدنا أية مشاعر " .

صرخ عبده المزوّر فى المشهد الأخير : "نحن ضحايا غدرك وأبرياء من الخطايا ، أنت وحدك القاتل دون أن تعى أنَّ ظلم أمثالنا ينتج الحنان ، إنَّ إشارة واحدة من أمثالك منزوعى الضمير كلّ صباح وأنت تنادى علينا : " أيها الأبرياء الأقوياء ... كان يسلب روحنا ، فنكمل الحياة قابلين الخنوع" .

"لماذا حرمتنا يا مجرم هذه الكلمات الطّيبة ، واستأثرت وحدك بالامتنان؟! أنت بحق قاتل ، وتستحق الحرق" .

الغشّ

لا أحد فى الحى معك ، الجميع ضدّك ، اتهموك بالقتل ؛ لأنَّك ابن اللواط ودون عائل، ليس هناك أحدٌ فى صفّك ، لا يمكن أن يخرج الخير من قلبك أبدًا ، هكذا قالوا جميعًا حين سألتهم السلطات عنك .

قال موسى القهوجى : "لم يقل لأحدٍ كلمة طيبة ، لا يستحقُّ العطف ، المطواة لم تفارق يديه قط ، كان كالكلب حين تقوم العركة ، ينهش فى أجسام الجميع بيديه ومطواته ، لم يهدأ إلاّ إذا تحّولت العركة لبركة من الدّم" .

أعلن الدكتور نصر صاحب صيدلية الشفاء جرائمه ، وقال : "كان يأخذ منِّى الحبوب الممنوعة ويعطينى الأدوية المغشوشة ، تعاطى المورفين الذى سرقه منِّى بفُجرٍ أمامى ، نبَّهته أن ذلك يمكن أن يقتله ، فسخر منِّى وسلَّمنى الأدوية المغشوشة جبرًا ، أبيعها للأهالى بعد أن أوضح مخاطرها ، قلت للمتردَّدين على الصيدلية : إذا لم تشفكم فاصبروا فالله هو الشّافى ، لم يكن مريضًا أو يستحق الشفقة ، يجب قتله بعد أن ملأ الدنيا بالمخدرات والأدوية المغشوشة ".

أصبح حكاية الحى ، الجميع ينظر إليه من خلف الأبواب والشّبابيك ، دون أن يجرؤ أحدٌ على النَّظر لِنِنّ عينه ، أرعب الجميع بشرَّه.

تمنَّى الجميع أن يقطعو قلبه بالسكاكين ، حتىَّ يتأكّدوا أنه لن يعود ، قالت عزيزة الكوافيرة التى كانت تِكنُّ له بعض الوُدَّ : "من يمشى وسط الشوارع يرعب الناس بعد اليوم – الوحيدة التى أعتقد أنَّها تعشقه – قالت بقسوة : "أخلصت له ودافعت عنه ، ومع ذلك انتقم منِّى ولم يعترف بى أبدًا كعاهرته.. القاتل كان يخوننى مع كلَّ نساء الحى !!"

تصوّر المجرم أنّ وجوده ضرورىّ لإنتاج الخير ، كان يحبسهم منذ اللّيل فى الخوف ، ويدّعى شجاعتهم ، يَعُدُّ أنفاسهم ، ويكسر أنوفهم ، ثمّ ينام كالكلب فى شقّته دون أن يحسَّ بالذّنب .

الجميع يعرفون أنّه القاتل الذى يحبس الجميع بجبروته ، مع ذلك ادّعوا كذبًا الانطلاق والحرَّية والابتهاج ، حين يقابلونه ، يسرق البهجة منهم ؛ لأنَّه الوحيد الذى يعرف الحقيقة .

فى اليوم الذى قُتل فيه الجدُّ العجوز الذى كان يعشق القاتل دون مقابل ، ويعطف على الجميع ، وجده النّاس مذبوحًا على باب الجامع وجسمه النَّحيل مُشوّهًا ويتساقط منه الدّم.

حين اكتشف عبد النبَّى الفكهانى ، وهو ينوى دخول المسجد فجر يوم الجمعة ذُهِل للحظة ، لم يتقّدم خطوة نحو الباب ، استوعب المشهد ، نظر حوله شمالاً ويمينًا لم يجد أحدًا .

هرب كالكلب لفرشته وادّعى المرض ، أيقظ زوجته وابنته ليتسلّما الأقفاص ، فى هذا اليوم لم يؤذَّن جامع الحى لصلاة الفجر ، فنام النّاس للضّحى ؛ لأنّ صراخ ميكرفون الجامع لم يوقظهم ، لم يسمعوا صراخه : "الصّلاة خير من النوم ... الصّلاة يا مؤمنين الصّلاة" .

لم يتوقّع أهل الحىّ كلّ هذا الدم ، بعد أن أحاط المنطقة صبية يلبسون أبيضَ فى أبيض ، ويربطون رءوسهم بكوفيات بيضاء ، ويمسكون السّيوف والسّكاكين ، تساءل موسى القهوجى وهو مرعوب : "من قطع وجوه هؤلاء الصَّبية وأغرق ملابسهم البيضاء بالدّم؟"

لم يردّ أحد من السّكان ، لكنّهم جميعًا كانوا متأكَّدين أنّ الفاعل معروف .. لن يستطيع أن يقتل الجدّ العجوز إلاّ منزوع القلب والمشاعر ، لكنّهم لم يفهموا تَجَمُّع الصَّبية الملطَّخين بالدّم رافعين السكاكين إلاّ بعد نصب محاكمة الميدان واعتراف الجميع .

أظهرت التحقيقات أنَّ مقتل الجدَّ العجوز كشف الحقيقة ، تذكّر الجميع فى صمتٍ طيبته ، قال لهم ليلة الحادث : "سوف تتصحّر الأرض ويتوقّف المطر ، لن تجدوا ماءً تشربونه إلاّ إذا أوقفتم الخوف" ، كان يحذّرهم من المجزرة التى ستقع ، كانوا يسخرون منه ويقولون له : "خلَّينا نشوف يا شيخ ، الوحيد الذى تعاطف معه هو القاتل ، قال له : "يا عجوز لن يفهموك إلا إذا جرحت السّيوف قلوبهم ، ونزفت مشاعرهم" .

نظر الجدُّ العجوز فى عينيه ، وقال له : "يا قاتل . أنت من يزرع فيهم كلّ هذا الانكسار" ، ذُهِل القاتل ، فالعجوز الوحيد الذى تجرّأ ونظر لِنِنّ عينه ، لامس روحه وتحكّم بمفاتيح شخصيته ، فقرّر التخلّص منه وعقد العزم على الانتقام ، حدّد اليوم الذى سيُذهل الحىّ ، ويُغرقُه بالخوف .

النّشوة

امتلأ كوافير عزيزة بالبنات والنَّساء اللاتى أبدع الله خِلقتهنَّ ، تتهدَّل شعورهنَّ الملونة خلف ظهورهنَّ ، وترفرف العبايات السّوداء حول أجسادهنّ ، يمضغن اللَّبان بدلالٍ مذهل ، ينظرن إلى عمدة العصار الذى جاء من الصّعيد ، ليدير محل عصير القصب ، فيتحسّر على العمر الذى مرّ فى بلاده البعيدة دون الإستمتاع بعيون النّساء والبنات ، ويقول : "فينك يا قصب أيام ما كنا عصّارين؟"

يرمق النَّساء الخارجة من كوافير عزيزة ، دون أن يدرى أنّ الأكواب التى يصبُّ فيها العصير قد امتلأت عن آخرها وأغرقت المحل ، فيصرخ : "صبرَّنى يا ربَّ" ، حين يلمح طيف القاتل ينزوى بالمحلّ ، ويقول : "استرها علينا يا جبّار" .

لم يكن يعرف المصير الذى سيؤول إليه صباح يوم الجريمة ، وجدوا رأسه منزوعًا من العينين ، فَرَمَتْ جسده ماكينة العصر ، لكنَّ الجميع كان متأكّدًا أنّ القاتل ارتكب الجريمة بعد أن رفض العصّار صبّ العصير ليشربه ، وقال : "لن تشرب الخير من يدى والبهجة تملأ الشّارع" ، وأشار علي الفراشات التى كانت تغرّد أمام محلّ الكوافيرة ، فشرب القاتل من دمه فى نفس اللّيلة ؛ لأنّه فضّل النساء على العمل .

حين استيقظ النّاس فى الضّحى يوم الحادثة ، وفُوجئوا بمقتل الجدَّ العجوز ، شاهدوا الدَّم يتسرب من محلَّ العصار ، كسروا الباب ليُذْهلوا من تقطيع جسده النّحيل .

لكنَّ الجميع لم ينسَ أنَّ عمدة تشاجر مع القهوجى منذ أسبوع بسبب معاكسته عدولة زوجته الثانية التى يعلم الجميع أنّه تزوّجها من الملهى اللّيلى الذى كان يعمل فيه قوّادًا ، كانت خطواتها بالشارع وهى تتأبّط يد صديقتها التى مازالت تعمل بالملهى ، وتزورها دون أن تخشى موسى ، أو أحدًا بالشارع يرعب الجميع ، ينتشى الشارع ويصرخ أبناء المدينة البعيدة ، ويقولون : "يا أرض اتهدَّى ما عليكى أدّى" .

تجرّأ العصّار ، وأخذ صينية بكوبين من العصير ، وقطع عليهما الطريق وأجبرهما على شربه ، ظل يبحلق فيهما حتّى اختفتا من الشارع دون خِشى .

قال للنّاس ، وهم يعاتبونه : "لم أتمكنّ من منع نفسى ، نادتنى رائحة عدولة ؛ لتشفى روحى من جفاف البلاد البعيدة ، ارتويت دون أنّ أدرى أنَّ ما حدث سوف يغيظ القهوجى" .

بهجة المدينـة أخذت عقلـه ، المحـلاّت المضيئة بلغة البيـع والشَّراء خلبت روحـه ، تبـادُل الكلمات الطّيبة والبحث عن النور بين مسعد الحـلاّق وبـدر الفوّال أذهلـه ، اعتزّوا بـأنـهم أبنـاء شوارع المدينـة البعيدة ، وتفاخروا بأصلهم البنـدرىّ ، تسـاءل العصّـار بحسرة علـى العمر الـذى ضاع قبل مقتله : "من يبدع هذا الجمال فى الحىّ كلّ صباح؟!"

يبحث الجميع عن المتعة منذ الصّباح ، وحين يأتى اللّيل ويُضىء المكوجى دكّانه الصّغير ، يرفـع صوت التسجيل لتشدو الأغانى القديمـة ، ينطلق صوت وردة مغرّدًا ، ويَعْقُبـه صـوت فايزة وعفاف راضى ينادى على الفراشات المضيئة ؛ لتعود لزهورها فـى الحىّ ، يبتسم الجميـع ويتفوّهون بألفاظٍ ومعانٍ هى كلّ الأمانى الباقية لـهم رغم وجود القاتل فى حيهم .

تصارعوا فى الشّارع أمام الجميع ورفع القهوجى الكرسى فى وجه العصّار ، أصاب جبينـه ، فجأة هدأت العركة ، وعادوا إلى محلاّتهم حين تذكّروا القاتل الذى كـان يسير بالشّـارع يبحث عن الشر .

يعرف الجميع أنّ موسى يغالط الجنّ الأزرق ، تطلب مشروبًا فيحاسبك على ثلاثـة، يدّعى أنـهّم باقون عليك من الشّهر الماضى ، تُصفَّى الحساب كلّ يومٍ معه فيترك دائمًا ذيـلاً ليغالطك ، من يقدر علـى طريقـة القهوجى فـى المغالطـة ، يُظهر حبّـه ودفـأه ويضحك فـى وجـه الزبـائن بخبث ، ماداموا يدفعون ثلاثة أضعاف ما عليهم بالتحايُل .

زوجتاه الاثنتان تفهمانه ، يسلِّطان عليـه الأولاد ليسرقوه ، تمكّن مـن شراء أراضٍ وبيوت لاخفاء مكاسبه من زوجتيه .

تعرّف على زوجته الأولى بأحد البيوت التى كانت تخدم فيها ، كانت فهيمـة تمتلـئ نشوة ، بهرته أفخاذها البيضاء اللَّينة ، حين دخل أحد البيوت ليسرقها قبل أن يصبح قوّادًا ، وجـدها تكنس المنزل مرتدية قميص نومها الدّاخلى ، ظهرت أردافها وفخذاها كسيقانٍ حوريـة ، أوقف السّرقة وطلب الزّواج منها ، وافقت لأنّه عاشرها كرجل ، تزوّجته لأنّه جامعها كـامرأةٍ مكتملـة ، أنهت عملها فى البيوت ، عاشت فى شقّته التـى جهّزها لـها ، دون أن يوقـع قائمـة بـالمنقولات أسعد أيام العمر .

استمتع القهوجى معها ثلاث سنوات ، كانت كثمرة الخوخ ، امتصّ رحيقها كلّـه ، لم يترك فيهـا أىَّ أثرٍ لامرأة حين تـزوّج عليهـا عديلـة الرّاقصـة ، ومـع ذلك حين أرسـلها لتكنس منـزل

القاتل بعد أن طلب منه إيجار الكراسى التى يضعها بالشّارع وقال : "يا معلم الطريق ليس ملكًا لأبيك ، إذا حرّرت السلطات ضدك محضرًا ، فستدفع كثيراً لتظهر براءتك".

أظهرت فهيمة كما رائعًا من الأنوثة خلب روح القاتل ، فكيف لامرأةٍ تبلغ من العمر خمسين عامًا أن تظهر مكتملةً رغم حيائها ؟!

قالت : "أرسلنى موسى لأنظّف البيت" ، قال : "هل تعرفين شيئًا عن خدمة البيوت" ، لم تردّ ، خلعت عبايتها ، سارت أمامه بجلبابها الطّويل فظهر لحمها دون ملابس داخلية ، انفجرت أعضاؤها فى قلبه ، اقترب القاتل منها وهى تنحنى على السّجادة والتصق بأردافها ، وقفت ملتصقة بظهره ، قالت : "ليست كلّ النّساء التى تخدم بالبيوت تفهم فى التنظيف " ، التفتت لوجه القاتل وهى ملتصقة به ، أدخلت شفتيه الاثنتين فى فمها ، امتصتهما لمدّة عشر دقائق ، أذهله قوّتها حين قطعت أزرار قميصه ومصّت كلّ جسده ، كاد قضيبه ينفجر وهى تضعه فى فرجها وتخرجه ، فتكت جسمه بأظافرها التى لوّنتها بلونٍ أخضر فاتح ، لم تتركه إلاّ بعد أن دقّ الباب مراتٍ عديدة .

قامت من تحته بعد أن رمته أرضًا ، بطّطته بقوّة على الأرض ليفرز دمًا من قضيبه ، المرأة المتوحّشة ظلت عشر ساعاتٍ تضاجعه ، انتشرت رائحتهما بالمِنطقة ، خاف النّاس على نسائهم ، دقّ جاره حمادة الباب ؛ ليطمئن عليه بعد الصّراخ المنفجر من الشّقة ، خرجت أمام الجميع بعد أن وضعت على وجهها قناع خدمة البيوت ، نزلت للشّارع ساخرةً من الجميع وسعيدةً بمهنتها ، حين لمحها موسى أمام المقهى عائدة نام عند زوجته الثانية شهرًا حتّى لا يرى وجهها البضّ اللاّمع.

حين أعلنوا فى الصّباح القبض على القاتل أخذ سخّان المياه ليحرق وجهه ؛ لأنه هددّه بغلق المقهى ووقف مجرى المال اليوميّ وحرمانه من الغشّ فى الحساب ، قال للمجتمعين : "لن نقتله سنحرقه ونأكل لحمه" ، لكنّه ألقى بالماء المغلى على الأرض ، حين نظر فى عينه المقيّدة بالميدان .

الخداع

حين سمع عبد النبى الفكهانى بجر القاتل للميدان ، قال لامرأته وابنته بهدوء وهما تحاولان إيقاظه ليشاهد عيونه: "اتركونى أنا مريض" ، سألهما : "هل عرفوا من قتل الجدّ العجوز ، ووضع رأسه على باب الجامع" ، قالت زوجته بلوع : "المصيبة أنّ عمدة العصّار قُلعت عيونه ، هتك المجرم خِصيته بماكينة العصر فى نفس اللّيلة" .

قام عبد النبى مفزوعًا ، ونظر لفرشته واطمأن على أقفاص البرتقال والجوافة ، وقال لزوجته وابنته : "لمّوا الفرشة لن يمرّ اليوم بخير" .

لم يخُفِ خوفه رغم ملامحه القوية التى كان يُخيف بها المارّة حين يذهبون إليه طواعية ؛ ليشتروا اليوسفى والكمَّثرى والجوافة ، يلمح بذكاءٍ شديد الثمرة العطنة، يضعها بالكيس دون أن تفهم سر فقد البوصلة والزمن ، وهو ينظر بعيونك .

يُضاحكك ويُحدَّثك فى أمورٍ كثيرة مدعيًا انتقاء أنضر الثمار ، تتعجّب حين تفتح الكيس بالبيت وتجد الثمار العطنة ، تتساءل فى صمتٍ : "متى وضعها المحتال؟!" تتوعّده لتأخذ بثأرك وتنتقى بنفسك الفاكهة ، فى اليوم التالى يُربكك ، ويقول لك وهو يضع الثِّمار العطنة بالكيس دون أن تدرى : "أنا الحاوى" ، فى اليوم الثالث تُسلِّم أمرك لله ، وتقول له : "تقَّى أنت الفاكهة يا عبد النبى بس خلَّى عندك شوية ضمير " ، فى اليوم الرّابع تدفع له أعلى من السَّعر المعلن ليضع ثمار الفاكهة النضرة ، يبتسم المنتصر ، تستسلم لقدرك ؛ لأنّ الوسخ لا يمكن أن ينسى داءه ، حين تذهب للمنزل وتفتِّش بالكيس ، تكتشف أنَّه وضع الثمار العطنة رغم دفعك برضا سعرًا أعلى من الثّمن المعلن للفاكهة !!

يسهر اللّيل بطوله يناكف المارّة ، فى الصّباح يوقظ امرأته وابنته ، يسلّمهما الفرش بعد خوضه ليلة مملوءة نشاطًا وهِمّة وتحايلاً ، كان وجه زوجته روحية قطعة من الجنة ، خدودها تنطق بالنضارة كثمار التّفاح ، عيونها المبهجة تلاغى الجميع ، تتمنّى أن تجد الوقت فى أىّ صباحٍ لتذهب إليها ، تشبع من رائحتها وعطر الفاكهة النّابع من صدرها المفتوح .

تشاهد روعة ابنته سيَّدة بقمطتها الحمراء وعبايتها السّوداء الضيَّقة التى تظهر أردافها المملوءة ، وتتمخطر حول الفاكهة ، فتملأ الشَّارع الواسع برائحة المانجو والبرتقال.

تستنشق رحيقيهما ، وتتساءل كيف استطاع عبد النبى الجلف أن ينُجب فتاةً رقيقة تُبدع النشوة والحبّ بسيرها المعتاد فى الشَّارع ، يرفرف جسمها فى دلع حول الأقفاص كأنّها الفراشة؟!

يقف القاتل أمام فرشة الفاكهة نهاية كل يوم خميس ، ينتقى الفكهانى له أجمل الثَّمار ، لا يتوانى فى وضع المزيد فوق الميزان ، ويقول له فى خنوع : "اسبق أنت يا أستاذ ، البنت هتوصلهم لحدّ البيت" ، يأمره القاتل بإرسال البرتقال والجوافة والكمثرى والعنب كلّ أسبوعٍ مع ابنته سيّدة لتدقّ بابه كلّ ليلة خميس، تدخل الشّقة وتضع الفاكهة ، يطلب منها أن ترصّ له حجر الشّيشة.

تقول سيَّدة فى دلالٍ : "هتأخر على أبويا يا أستاذ" ، فيقوم ويغلق الباب ويفتح عبايتها فيظهر صدرها الصّابح ، يتحسّسه بيده ، يسرح على بطنها ، يستكمل فكّ أزرار العباية ، يظهر قميصها اللّبنى النّاعم ، يزيح العباية من على كتفها ، تسقط على الأرض ، يحيط ظهرها بيديه ، تفلت منه كالفراشة ، تجرى لحجرته التى يضع فيها سريره ، يزنقها فى ركن الحجرة ، يضع قضيبه المنتصب بين وركها ، تُحسُّ بقشعريرة غريبة ، يمسكها من فرجها البضّ ، تصرخ بلذّة ، تلبس العباية وتقول : "أبويا هيموتنى" ، تفتح باب الشّقة وتنزل مسرعة للشارع .

يستقبلها عبد النّبى ، ويقول لها : "أعطاكى حقّ الفاكهة يا بت" ، تسلمه سيّدة الجنيهات الورقية ، يبتهج ويعلم أنَّ القاتل رغم إجرامه يدفع الثمن!!

كان يمرّ عليه كلّ يوم ، وويوبّخه على اللمبات الكثيرة التى يضيئها حول الفرشة ، ويسأل الفكهانى فى اتهام : "هل تدفع فلوس استهلاك تلك الكهرباء؟!" وينهى حديثه قائلاً : "سرقة التيار الكهربائى تستوجب الحبس ، حاذر يا أبو سيدة ، الحكومة لها ألف عين" .

حين جرّوا القاتل للميدان صباح اليوم ، صحا من نومه بعد شفائه من المرض ، تذكّر كلّ تلك الأحداث الماضية ، وقف كالوحش وأمسك سكّينه ، توجه للميدان بعد أن لمّ فرشته ، وأغلق على الفاكهة والمرأة وابنتها الحجرة ، وقال للجميع : "اتركوا رقبته لأقطعها بسكّينى" .

القسم الثّانى :الاعتراف

السّفلة

رغم هذه الأحداث لم يندهش رجال ونساء الحى يوم محاكمة الميدان إلاّ حين عرفوا حقيقة القاتل ، أرعبهم مروره ناشرًا جبروته فى الحىّ ، ذاقوا من سطوته الكثير ، جعلهم مشهد المحاكمة الدّامس فى الميدان ، وهو مُلقىً بينهم مقيدٌ وسط الجميع يكتشفون باقى الحكاية ، القاتل الذى كان يرحل عنهم عدّة ساعات ويعود كلّ يوم ، دون أن يعرف أحدٌ أين اختفى ، كان يعمل بشركته التى امتلكها بالمدينة القريبة .

اكتشفوا فجأة أنَّ المجرم الذى عاش وسطهم كان له وجهٌ آخر ، لم يتخيَّلوا قط أنّ بشرًا آخرين جرحهم إجرامه إلاّ بعد أن فُوجئوا بتجمّع عشرات الرَّجال والنَّساء بالميدان ، صارخين فى الأهالى : "ليس ثأركم وحدكم ، نريد قلبه وكبده لنلتهمهما ، طُعنًا فى أعز ما نملك" .

أمسكوا رقبته ، خيّطوا فمه ، قيدوا يديه من خلف ظهره بأسوارٍ نحاسية ، وضعوا القيود الحديدية فى قدميه ، جرّوه بوسط الشارع لِيمُرمطوا كرامته ، كانوا يسيرون وراءه وهو مقّيدٌ بسلاسل جرَّها الأطفال ، استمتعت النّساء المنزليات وهن يلقين عليه من البلكونات الطّوب حتّى مسحن الحوارى بسيرته النّجسة ، أعاده الجمع مرّة أخرى للميدان الواسع ، بصقوا جميعًا على جثّته المقيّدة .

اقشعرَّ بدنه ، كيف يجرؤون على النّطق بكرهى؟! أذهلهم قلبه بعد أن دخلوا نِن عيونه ، اقتحموا عزلته وأهانوا كرامته ، تذكّر العطايا التى كان يمنُّ بها عليهم ، التصقت بصقة الفكهانى بوجهه ، لم يتمكّن من إزاحتها ، كانت رائحتها مقزّزة مليئه برائحة المعسّل والفحم ، قال لنفسه : "أىُّ قسوةٍ تحتملها قلوبكم ؟! ماذا وجدوا فى نِنَّ عيونه ، دفعهم بقوّة لمواجهة ضعفه ؟! "

صرخ عبده المزوَّر : "أنت تعلم يا قاتل كلّ الجرائم التى ارتكبتها فى حقَّنا .. الجميع اعترف بجرائمك ، لم يعد لك خيارات ، يجب دفع الثَّمن من حياتك ، لن يغذَّى حقدنا سِوى التهام كبدك" .

قال المزوّر ليستعطف الجميع : "كان يجلس معى باللّيل ، ويجبرنى على تزوير الأختام ، ويقول لى بعد أن ينظر بعينى : استكمل يا مزوَّر وإلاّ حبستك" .

"لم يترك لى خيار ، لكن حين نظرت لعيونه صباح الأمس تأكّدت أنّه القاتل ، جئت للميدان ؛ لأعترف بجرائمه التى أجبرنى على ارتكابها ، لكنّ الحقيقة التى لم يقلها عبده أنَّه كان يأمل بالعمل بمكتب القاتل ان ينال المجد الذى سُرِق منه بسبب مهنة أبيه" .

أثار حقد عبده وظيفة أبيه بالمدرسة ، حين ينادى عليه النّاظر ، ويقول : "يا أبو عبده فين الشّاى" ، كان التلاميذ يسخرون منه ويغيظونه ، ويقولون : "يا ابن الفرّاش اكنس الفصل ، وإلاّ خصمنا مرتب ابيك" .

أُصيب بمرض الصّرع بسبب تحطيم أحلامه بالعزّ ، فحين يشاهد ابوه يعد الشّاى وهو يلبس البالطو القطن الكاكى ويكنس المدرسة ، ويصرخ الجميع بوجهه يتحّمل الانكسار برضا .

حينما دخل الجامعة التحق بمجموعة المساواة بين النّاس ، خلبت عقله وأزالت انقسامه ، ارتبط بهم ليحلّ العقدة ، تعامل معهم كإخوة ، رغم أنّه أغدق عليهم بالحب ، لكنّ الزعيم سلّمه فى ذلِّ المالَ ليشترى الملابس والطّعام ، وقال بعطف : "عايز حاجة يا عبده " ، تذكّر أمّه البائسة وهى تطبخ العدس والفول بالرز ، وتقول لإخوته : "إنّه أشهى الطّعام" .

بعد سنين من معاشرة عبده للمجموعة ، لم يفارقه إحساس الفَرَّاش ، أُحيط بالمهانة ، نظر حوله فى صباح يومٍ كئيب ، وجد جيرانه وأهله والأغنياء المعربدين فى الحىّ يعيرونه بمهنة أبيه ، علم أنَّ مجموعة المساواة رغم مرض أغلب أعضائها بالانقسام ، إلاّ أنّهم أفضل من جيرانه الذين يعرفون تاريخ فقر عائلته ، استمر معهم ، لكن مرض الصّرع عاد من جديد يُمزِّق أوصاله .

رحّب عبده بطلب القاتل العملَ لديه فى اصطناع الأوراق لشركته ، وقال لنفسه : " بدأت فى طريق المجد " ، عرض خدماته على القاتل ، ذُهل القاتل من قدرته على التزوير ، كان يسلّمه ظرفًا كبيرًا كثمنٍ على جهوده الجبَّارة فى مضاهاة الأوراق ، دون تمكّن أحدٍ من اكتشاف الحقيقة .

علم المزوَّر أنّه وجد ضالتّه ، عاد حلم تأسيس المكتب الكبير المملوء فراشين ؛ ليحضروا لزوجته الطعام ويُلَمَّعوا حذاءه ليتجاوز الحقد ، خدم القاتل بضمير وذاب فى مضاهاة الأوراق واصطناعها .

حين أعلن القاتل توبته ، وقرّر أنّه لا يحتاج للأوراق المزوَّرة ، أعاد لـ عبده الانهيار ، فقال للقاتل : "كيف تجرؤ على حرمانى من تحقيق حُلمى وتأسيس شركتى؟ لن تُوقف المبلغ الذى تُعطيه لى ، سأظلّ أزوِّر الأوراق حتّى ولو لم تحتاجها ، لماذا تحرمنى المجد؟!"

قال القاتل : "لا أحتاج أوراقك" ، قام عبده مصروعًا وأمسك برقبة القاتل ليأخذ روحه ، كانت ضربة واحدة فى وجهه كفيلة لإعادة ذاكرة الفرّاش ، خرج من المكتب مصروعًا ، وتوجّه للنَّيابة يبلغُ عن جرائم القاتل فى التزوير ، قال فى التحقيقات : "كان القاتل يجبرنى على مضاهاة التوقيعات ، واصطناع المستندات وتقليد الأختام" .

اعترف المزّوِّر بكلّ شىء ، وادّعى أنّ المتهم هو الذى أجبره على ارتكاب الجرائم، قال بشفقةٍ جعلت الجميع فى الميدان يتعاطفون معه : "كيف يمكن أن أواجه غضبه؟! أنتم تعرفون أكثر منِّى لون عيونه ، لا يمكن رفض الثمن رغم الجرم " ، قال الجميع مؤيّدًا لكلامه : "القاتل يستحقُّ الإعدام ، لن تأخذنا به شفقة" ، نظر المزوِّر إلى وجوه الجميع مغتبطًا ، وصادق الجميع على براءته .

فى تلك اللّحظة حضر للميدان يحيى الواشى ، وقال بسخرية وهو يشير على القاتل : "كان يقابلنى كلّ يوم ؛ لأحكى له ما يدور فى وجوه الأهالى ، يرسلنى لأجلب من السلالم المختلفة وأفنية البيوت والمصانع رائحة الخيانة وطعم الغش، يعطينى الأموال ، ويقول فى حبٍّ : "استمرّ يا يحيى ، وإلاّ حرمتك النّقود التى تدفع بها الإيجار ، وتشترى لأبنائك الفول والجبن" .

وُلد يحيى الواشى بقريةٍ بعيدة ، تركه أبوه المتزوِّج بامرأةٍ أخرى بالمدينة ، أشفقت عليه الأمّ من جهل القرية ، غادرت للمدينة القريبة ليستكمل تعليمه ، أصبح يحيى محاميًا بعد شقاء الأم ، تغلبت على مرض السّكّر والكلى والضّغط ، تربىّ بالحى الذى ملأه باللّوع ؛ ليهرب من عيون الجميع الذين يصرخون فى وجهه كلّما قابلوه : "يا تربية المرة!"

قال لهم حين عايروه فى صمتٍ: "يا بشر إن الحياة جميلة " .. حاول كتابة الأغانى ليخرج من معايرة الحى بأمَّه صاحبة الفضل عليه ليصبح رجلاً محترمًا ، كان يقول دون أن يبوح لأحد : "إنها العار الوحيد فى الحياة" .

مزّقت هذه الأفكار يحيى الواشى رغم أنَّ الفرصة أُتيحت له ليُزيح العار ، ويسعد الأم التى كفرت عليه ؛ لتوفر ثمن الكتب ومصاريف المدارس والجامعة ، جعلته أفكاره الشَّريرة يرحَّلها

إلى القرية البعيدة مرّةً أخرى ، عاد مشهد الهروب ، وهى تسحبه فى ذلٍ وإهانة المرحّلين من قرية منزوعى الشفقة ، اليوم يعيدها الواشى دون رحمة لنفس القرية بعد أن دفعت ثمن الرحيل ، استأجر حجرة وألقى ملابسها وأغطيتها بركنها ، تركها وعاد للحى ، واظب على إرسال عدة جنيهات لبوستة القرية ، تتسلّم المبلغ بخزيٍ حتّى لا تموت من الجوع ، قال يحيى فى مشهد الدّموع ، وهى تبكى على رحيله وتركها وحيدة : " أنتِ تعبتِى من الخدمة وسهر الليالى يامَّه " ، تركها وحيدة بالقرية وعاد للحى يستمتع بالوِشاية ، لم يتمكّن قلبه من نسيان الجريمة .

أدمن المخدرات ، عمل فى القضايا الوقيع ، امتهن النّصب وأصبح معروفًا فى عالم المحاماة "بالجهبذ" ، عاشر نهّابى ثروات المدينة ، رسم الخُطط فى الانتخابات لصاحب الجاه ليخيف الخصوم ، حُرِّرت ضدّه محاضر كثيرة بسرقة المستندات وبيع موكليه لخصومهم .

ارتبط بمجموعة المساواة بين الناس معتقدًا غسل جرائمه وتطهير ماضيه من الوشاية ، فى هذا الوقت قرّر أن يُعيد يحيى أمّه لتعيش مع أولاده وزوجته ، ذهب للقرية بصحبة زعيم المجموعة ، حين شاهدته ماتت محسورة على شقى السنين، دفنها وعاد للحىّ ، وهو فاقد الإحساس والمشاعر .

دفع طمع يحيى الواشى الذى يعرف خبايا العيون والقلوب بعد أن أعطته الدّنيا الأموال والأولاد ، للزواج بالعانس أمينة بنت العيلة الكبيرة بالحى ، اعتقد أنّها ستعيد لأصله الملوّث بتعب امرأةٍ شريفة تُدعى الحاجّة صديقة العز والجاه ، نسى مع نعيم أمينة العانس الصّرف على أولاده وزوجته الأولى التى كانت تعرف أصله المتعمَّق فى النّكران ، فخرجت للعمل لتعول أبناءه مستعيدة قصة كفاح صديقة أمَّ الواشى ، التحقت بمصنع للحلويات لتطهو الصّوانى التى حرمت من مذاقها ، كانت تعرف أنّه لن يعود أبدًا .

حكت شوقية زوجة يحيى الواشى الحكاية لكلّ من قابلتهم ، وقالت لهم : "الوسخ عمره ما هينضف ، الغادر باعنى بأبخس الأثمان ، أرسل ورقة الطلاق فى الليل الدّامس وترك لى ثلاثة أولاد وبنتًا أكبرهم لا يتعدّى عشر سنوات ، نسى الواشى وقفتى بجواره لتأسيس مكتبه ليصبح محاميًا ، تزوّج بـ أمينة ليغسل تاريخه الملّوث ، لكنه لا يعلم أنّ الوساخة داخل روحه ، ولن يُطهِّرها إلا موته" .

قالت بحيرةٍ أذهلت الجميع : "رمى أمّه كالكلبة فى القرية ، وضاع للأبد" .

فى اليوم الذى تقابل يحيى مع المتّهم عرف أنّه طوق النجاة الأخير ، زحف على باب القاتل ؛ ليوشى كلّ يومٍ بخبايا نفوس الناس ، كان يمشى مع الجموع ويجلس وسطهم على المقاهى ، يعاشرهم بحبٍّ مصطنع ؛ ليحكى للقاتل آخر النهار إبداعاتهم وخلافاتهم .

سأله القاتل مراتٍ عديدة عن درجة جبروت السّلطة وتعاملها مع الجموع ، كان يعدّ الواشى أنفاس النّاس بدقّة لدرجةٍ أذهلت المتّهم ، وتجعله يخرج كيسه المملوء بالنقود ، ويرمى بحجره دون اهتمامٍ بقيمتها .

نظّفه المتهم من القضايا الوقيع ، وعلّق لافتة محترمة على باب الحارة ؛ ليعلنه محاميًا للفقراء ، فاستعاد يحيى مجد ارتباطه بمجموعة المساواة بين النّاس التى كان يعتقد أنهّا غسلته من ذنوبه وأمراضه ، لكن زعيم المجموعة الذى عاشر أخته ثناء بدعوى المشاعية والإخاء جعلته يكفر بالمجموعة والمساواة ، ترك أخته تواجه إجرام الجميع باحثةً عن الأمان ، لحسَ الجميع نهودها ، حوّلوها لغانية ، حتّى يُريح نفسه من رائحتها قال : "ليست أختى!"

استعاد الواشى كتابة الأغانى للآملين بالحبّ ، حين قرّر القاتل بجبروته فجأة أن يوقف الوِشاية قال لـ يحيى الواشى : "لا أحتاجك ، لن أعطيك المبلغ اليومىّ مرة ثانية ، أعلنتُ التوبة" .

صرخ واتنطط وفرقع لوز ، وضرب جوز بوز وعيط ، وقال كلامًا كثيرًا لا يتذكّر القاتل منه شيئًا رغم تهديد الواشى آخر المشهد صارخًا فى وجهه : "لماذا تحرمنى فرصة العمل الوحيدة؟ أنت النُّور الوحيد .. الوِشاية هى الأمل المتبقّى ، هل تريد قتلى؟!" ردّ المتّهم بثقة : "أعلنتُ التوبة" .

أكّد يحيى جرائمه للجميع بالميدان بصوتٍ حزين ، وقال : "كانت وشايتى مُبرّرة ، لأنّنى أمارسها من أجل إطعام الأطفال " ، لكنَّ القاتل الغادر ، قال فى اليوم الأخير : "لا تهمّنى وِشايتك ، وحرمنى النّقود ، ذهبت للمحكمة لأبلّغ عن جرائمه فى التجسّس على أهل الحى .. الشىء الذى تأكدّت منه هو براءتى من الوِشاية ؛ لأنّ المجرم الذى استخدمنى كان يستمتع بإذلالى ، لم يرحم سنّى ووقارى ، وأنا أجلس أمامه كالكلب أبلّغه بروائح ولغة عيون الأهل" .

وجد يحيى نفسه مؤخوذًا بقوة الدّفع للمحكمة ليحكى بفخرٍ ، كيف حاول طوال السنوات العشر الفائتة أن يمنع جرائم القاتل ، كان صادقًا حين صرخ وسط الميدان : " كتب فى تقاريره عن براءة مشاعركم ؛ ليُعيد الرحمة الطيبة ويغفر للمخطئين ولا يؤذيهم ، فى اليوم الأخير

تمكّن قلبه الميَّت من فتح ممر الشرّ ، ارتكب جريمة القتل دون رحمة ، رفض نصائحى ، يستحقُ بشرَّه أن نحرقه قبل حضور السّلطات وتسلم جثته ".

الشىء المفزع أنّه حين نظر إلى عيون القاتل وسط الميدان أحسّ أنّ الجميع يعرفون تاريخه المُشين فى الغدر .

لم يصدّق الجمع فى الميدان حضور ابن بشرى النجّار المشهور بخسّته بنفسه ؛ ليدوّى جرائم القاتل فى الخسّة .

دوّت صرخة بطرس فى الميدان قائلاً : "انتظروا لأحكى عن غدره قبل حرقه ، لماذا تحرموننى نعمة الاعتراف بجرائمه ، القاتل حرمنى النّوم بدعوى الأمل" ، نسى بطرس أثناء الحكاية أن يعترف بأنّه جاء من قريةٍ قهرت أسرته وأطعمتهم الظلّم رغم علم الجميع بالحكاية ، لم يكن أحد يتوقّع أن يأتى بطرس للميدان ، وينسى عمل والده بشرى بالنَّجارة وصنع الكراسى الرّقيقة ، خدم والده بعيونه رغم معاملته كدرجةٍ ثانية من البشر ، اتّسم والد بطرس بالرّؤية الثاقبة ، لكنّ الجيران قالوا : "مسيحى ورائحته النتنة تفوح من ملابسه لعدم اغتساله بعد معاشرة زوجته ، كيف نثق بشهادته إنّه نصف رجل؟!" نسى بطرس والده بشرى الذى تفانى فى صنع الدولايب والأسرة ، وإبداء رأيه الثّاقب دون أن يهتم بسخرية الجيران ، خلق بشرى البهجة فى أفراح البنات .

أنكر بطرس فضل الكنيسة التى قامت بالإنفاق عليه ؛ لإكمال تعليمه بعد وفاة الأب وتشريد الأسرة .. انتقلت الأم لشارع النّصارى لتعيش وسط إخوتها وأبناء عمومتها ، فتحوّل بطرس لمجرمٍ بعد أن تأكّد أنّ ديانته لا يمكن أبدًا أن تكرمه ، نظر إلى قبّة الكنيسة المرتفعة وهو يتبرَّأ من دينه ، تذكَّر أمّه ، وهى تتسلّم الطعام من القس ، لولا كرم الكنيسة لماتت من الجوع وتشرّد إخوته ، ومع ذلك ظلّ يحمل الحقد ، ويتظاهر بأنّه غفر إساءة الجميع .

حين ارتبط بمجموعة المساواة بين النّاس التى نادت بأنّ الشوارع للجميع عرف أنّه وجد طريق الخلاص ، غاص وسط المجموعة ، تأكّد من نظرات عيونهم وتقسيم الأدوار بينهم أنّه الخسيس دائمًا بصرف النظر عن دينه .

كان زعيم المجموعة يسخر منه ، ويقول : "رأيك إيه يا زخارى" ، فيضحك الجميع ، ويقول نائبه : "اسمه محّمد يا ريس!"

رغم كفره بالمجموعة فإنه أوهمهم أنّه يعمل معهم ، رغم أنّه كان يعمل مع السلطات ؛ ليبلغهم بحكايات مقاهى المسلمين والمسيحيين ، عرف النّاس خبثه المتناهى ، احتاروا فى شرّه ، أطلقوا عليه القسيس.

حينما قابل القاتل فى يومٍ برد ، أفهمه دوره وسط الناس ؛ لينشر الرّعب والكره والقهر ، ويبلّغوه أولاً بأوّل فيما يفكّرون أو يحلمُون ، علم أنّه وجد ضالّته ؛ لأنّ القاتل سوف يدفع الثمّن مقابل مهنته التى أتقنها فى الماضى ، ولم ينل إلا السّخرية باعتباره القسيس .

أغدق القاتل عليه بالأموال ، قال لنفسه : "إن القاتل يتسلّم الأموال من المسيحيين خارج البلاد ليوصلها لنا ، الخسيس بطرس أنكر نظرة عيون القاتل البريئة ، ونسى أنّ زياراته وسط قومه أبناء الصّليب أظهرته كبطلٍ لينسوا تاريخه ، غسل القاتل ماضيه فى الخسّة بزيارته المتكررة بمنزل والده بشرى ، جلس القاتل أمام المنزل وسط الشارع ؛ ليعيد مجد أبيه الذى صنع البهجة وحجرات النوم للفتيات الرقيقات الراغبات فى المتعة ، نشر القاتل يومها الدّفء الذى أحسّه أهالى بطرس الخسيس ، فقالوا : "يستحقّ الأمان ، لم يكن أحدٌ وقتها اكتشف تلك الجرائم التى اعترف بها الجميع بشكلٍ أدهشهم ، وتعجّبوا من قيام شخصٍ واحد عاش بينهم كلّ هذه السنين كبرىء ، وارتكب الجرائم المَشينة وخدعهم بلون عيونه الصّافى" .

قال بطرس بخسّة : "إنّ القاتل وسيط المال فى مكتب بيع الأحلام ، يجب تغييّره بعد اكتشافنا" .

حين قرّر القاتل التوبة ، قال لـ بطرس : "لا ترينى وجهك مرّةً أخرى لا أحتاج خدماتك" ، قرّر الخسيس تلويث سمعته ، وكوّن مع الضّحايا الذين يعّرفهم جيدًا فرقًا للتشهير بجرائمه باعتباره سارق الأرواح ، أدار فرقة الضحايا من بعيد حتّى لا يظهر القاتل فجأة ويقتله دون أن يدرى ، لم يأمن بطرس حتّى لنفسه ، فكيف يأمن لفرقة التشهير؟!

لكنّ القاتل الذى يعرف خِسته قال بصوتٍ جهورىّ صباح الأمس : "أعلنت التوبة ليس لك مكان ، لا تُرِينى وجهك مرَّةً ثانية" . توجّه للميدان الواسع حين علم بنبأ القبض عليه ، وقال بكلّ قوّة : "القاتل لم يعد وسيطًا لغسل المال" ، دوت صرخاته عالية ؛ ليسمع أبناء دينه خارج الحدود أنين ضعفه واحتياجه للقرش فيشفقوا على ذلّ إخوته ، صدّقه الجميع ، التفّوا حوله ليغترفوا ثمن الخيانة الذى رفض المتّهم تسلّمه وأعلن التوبة ، عاونوا بطرس على طعن قلب القاتل دون تذكّر خسّته .

تناسَوا رائحة نجاسته بسبب الصّليب ، ذُهِل القاتل بقدرة البشر الجبّارة على تجاوز الشرّ من أجل إشباع غرائزهم فى الدّم .

صرخ بطرس ليدهش الجميع : "طوال عشرين سنة خدمته ، لم يمنّ علىَّ يومًا بالامتنان ، كان يمارس ألاعيبه وجرائمه أمامى ، رغم نُصحى له بوقف الغدر" ، كان يقول لى : "افهم دورى يا خسيس فى الجرائم وتذوّق دم الضحايا ، إذا قابلك أحد الأهالى ، وسألك فقل : إننّى النّور والخير الذى يملأ الحى" .

كان يسلّمنى النقود عنوة ، أقول له : "أرجوك لا تعطنى شيئاً ، لست خسيسًا لأبيع أهلى" ، كان يصرّ ، هددّنى بالقتل لقبول الثمن ، حين قال لى صباح الأمس : "يا خسيس" ، وامتنع عن إعطائى المقابل ، تأكّدت أنّه القاتل الذى يستحقُّ الموت ؛ لأنّه استخدمنى دون أن أدرى طوال عشرين سنة ، هرولت للميدان لأحكى جرائمه التى ارتكبها فى حضورى ، وأنهى حديثه ساخراً : "ألبسته الملابس النظّيفة ولون وجهى بدم الخيانة!!"

فى اليوم الذى نظرت إلى ننّ عيونه ، وهو يرفض تسليمى الثّمن ، قال بفُجر : "اخرج أيها الملاوع لا ترنى وجهك " ، قررت خداعه ، خرجت بهدوء ، وقلت وأنا متوجّه لمنزلى : "أنا خسيس يا قاتل سوف تدفع الثمن من سمعتك" ، كوّنت فرقة التشهير التى كشفت تاريخه ، فتأكّدتم جميعًا أنّه القاتل .

صرخ بطرس فى زوبة الكئيبة ، وقال لها احكِى لهم ما حدث معك ، لا تخفى شيئا فالجميع يشهد اليوم بأنّه يستحقُّ الموت ، نظرت زوبة بحسرة إلى الجمع وكشفت جريمته ، ظلّت زوبة البنت الريفية التى حضرت للمدينة منذ عشر سنوات تعيش مع خالها الدّكتور بالجامعة الذى ينادى بالحبّ ، ويتبوأ منصبًا كبيرًا فى مجموعة المساواة .

ساعدها حتّى أنهت دراستها الجامعية ، كانت ترغب فى الانطلاق ، لكن لعنة الرَّيف التى لازمتها وفضل خالها الذى آواها لم تغب عن روحها ، كانت ترغب فى ردَّ الجميل ؛ لتبقى الشريفة وتنعم بالحياة الهنية .

التحقت بالمجموعة التى هيّأت لها الأرض بالقراءات والحبّ ، قالوا لها : "عيشى حياتك ، أنتِ حرّة لأنّكِ تطالبين بالمساواة بين النّاس" ، أعطوها الإشارة لبدء الأمل .

انطلقت زوبة الكئيبة فى الجامعة تهتف مع شباب المجموعة بموت السّلطة والحياة للجميع ، كانت البنات الخليعات المرتبطات بشباب المجموعة يثرن حسدها قالت بحسرة : "لماذا لا أستمتع مثلهم بالحب؟"

حاولت أن ترتبط كثيرًا بشباب المجموعة لكنَّ وجهها الخشن وصوتها الأجشّ الشبيه بالرجال ، وجمودها وصلابتها الظاهرية منعتها من الإحساس بروحها العطشى حتّى جاء اليوم الموعود وتقابلت مع المتّهم ، أذهلها نن عيونه الطيبة، فهمت للمرّة الأولى أنّ الحب يملأ الدّنيا ، وأنّ المجموعة لا تملك الكمال ، لم يقل لها المتّهم شيئًا ، وضع قلبه بجوار قلبها ليملأها بالنّور للحظات ، اقتربت لتستمتع بالكنز ، عرضت عليه معاشرتها ، كان المجرم يماطل لأنّه مشغول بالغدر ، ومع ذلك لم تنكر أنّه كان يعطيها الثّمن .

لم تكن تكفيها هذه الأظرف الورقية التى يملؤها بالمال ؛ لأنّها تحتاج شيئًا آخر أثمن ، لكن القاتل قال لقلبها بقسوة : "لا يمكننى أن أعطيكِ براءتى ، إنّه النور الذى يُضىء حياتى ، يمكنك أن تسيرى بجوارى وتأمنيى الطريق فتنجى بحياتك" ، قالت : "يا مجرم أتتركنى بعد تذوّق طعم الحب؟! كيف تحرمنى من الحُلم وتدّعى أنّك تدفع الثمن؟! هل يمكن تقدير قلبك البرىء بأموال الدّنيا؟!!"

صرخت فى الميدان : "يجب التهام قلبه قبل تسليمه للبوليس ، والإبلاغ عن جرائمه التى كانت تستمتع بها أثناء ارتكابها من أجل براءته" .

قالت : "سلّمنى للحب ، فقال : ادخلى قلبى يا زوبة ، ولا تخافى ، وبعد ذلك فاجأنى بالتوبة ، قررت الانتحار فيكم للأخذ بثأرى!"

فى اليوم الذى جلست جواره هرب قلبه ، سلّمنى ظرفًا كبيرًا ، وقال : "سأعطيك كل شهرٍ مبلغاً أكبر مقابل تفجير مشاعرى ، فأفيض بالحبَّ على الجميع " .

"كنت أقف أمامه كلّ يومٍ ، وأقول فى ودَّ : "صباح الخير" ، يأخذنى فى حضنه يستمتع بقلبى العطشان ، يشرب منه العطر والزّهور ، يسلّمنى ظرف النقود المغلق ، أطلب منه زيادة المبلغ ؛ لأنّنى القلب الذى يمرّ من خلاله لمشاعر الجميع وعيونهم" .

يرد ببهجة : "حاضر" ويفعص نهدى ، يغلق الحجرة ، يرفعنى فى الهواء ليدخل بقلبه الطيب فى فرجى ، انفجر فى دمى آلاف المرّات ، سلّمنى آلاف الأظرف ، لكن يوم الأمس قال بغدر : "لن أحتاج عطشك!"

"أحسستُ بالغلّ ، فكيف للشرير أن يرفض الحبّ ، أذهلنى صموده أمام قلبى ، لم أتمكّن من الاقتراب لقلبه رغم حصارى ، دخل ننّ عينىّ ، وقال : "اخرجى يا زوبة لن أحتاج قلبك بعد اليوم ، ورفض تسليمى ظرف النّقود " .

"علمت أنّه المجرم قابض أرواح الحب ، قرّرت رد الإهانة ، قلت للجميع قبل محاكمة الميدان : "يجب محاكمته ، وقررت الاعتراف لمساندتهم ، وقلت : "يستحقّ القتل ، لا تتوانوا عن قتله والتهام براءته" .

الأرقام

فُوجئ المجتمعون بصراخ العشرات من الرجال والنّساء بالميدان : "أكل شقانا ، انتقم منّا دون أن تأخذه رحمة أو شفقة" . اكتشف الحى جرائمه الرهيبة المرتكبة بمكتب بيع الأحلام ، حين قالت صفية التى تُمسك التريكو والإبرة فى يدها : "أىُّ قسوةٍ امتلأ بها قلبه ، لم يقل قط لى كلمةً طيبة ، لم يحسّ بى كامرأة ، كلّما رآنى بالمكتب أحسست برائحة المحشى يملأ الحلة الألمونيوم بمطبخى ، لا أعرف لماذا كانت تملؤنى نظراته بهذا الإحساس؟! حين حاولت التقرّب منه كانت رائحة المحشى تفوح من ملابسى ، فيقول : "أرجوكِ خليكِ بحجرة الأرقام لا تخرجى منها!"

صرخ أبو ريالة ، وقال: "ألا تتذكّرين يا صفية حين قابلنى ، وقال لى : من أنت"؟ قلت له : "أنا عاملك الأمين منذ عشر سنين" ، قال : "أغلق فمك ، ولا ترنى وجهك مرّة ثانية ، إيّاك أن تغادر حجرة الأرقام مرّة ثانية" ، نسى بقسوةٍ أنّه جمعنا من شوارع الحىّ ، وقال : "أنتم الصّفوة" ، وأخذنا لمكتبه ليحبسنا عشر سنين ، ونسى أسماءنا .

تسلّل الليل للميدان ، أشعل أهل الحىّ المشاعل ، حملها الضّحايا الذى أطلق القاتل عليهم "الأرقام" ، اندهش عبد النبى الفكهانى ، وموسى القهوجى والدكتور نصر الله ، وقالوا جميعًا فى زهوٍ : "رُحِمنا من غدره رغم أنّه كان يعيش بيننا لكنه لم يحبسنا مثلهم" ، قالت عزيزة الكوافيرة : "كيف لم نعرف عمله فى الخيانة بمكتب أحلامه ، وظل غريبًا عنّا رغم أنّه عاش كواحدٍ منّا!! "

نَظَرت إلى نِنَّ عينه ، شاهدتُ النّساء اللاتى عاشرهنَّ ، فقالت : أيهّا الخائن سوف نحرقك جميعًا ، لكنَّ مُسعد الحلاّق ، وبدر الفوّال اللذين اندهشا من قدرة القاتل على جمع كلّ هؤلاء الناس ضدّه ، زال عجبهما حين سمعا كريمة التائهة تقول : "أخذنى ووضعنى بحجرة وسط العشرات من الرّجال والنساء ، وقال : اسمك (عشرة) لا تظهرى فى المكتب إلاّ حين أنادى على اسمك ، وسألنى أمام الجميع اسمك إيه ، قلت بحياء : (عشرة)!"

كان القاتل يحبسهم فى حجرةٍ كبيرة ، ويُخرجهم حين يأتى التعداد الذى يتسلّم على أساسه الهبات والعطايا ، كان يصرخ فيهم ليعيد كلّ واحد فيهم رقمه : "أنتم تعملون عندى ، وأعطيكم المظروف مقابل يومٍ أسود مثل هذا ، أنتم أرقام .. لا فائدة لكم إلاّ عند الإحصاء .. لا تنسَوا

أسماءكم ، رقم خمسة قبل رقم أربعة بعده رقم ستة" ، الضحايا الذين لم يفهموا أبدًا دورهم لا يتذكّرون أسماءهم !!

كيف استطاع بجبروته أن يحول البشر لأرقامٍ لم يرهم قط إلاّ يوم الإحصاء ، كان لا يعرف أسماءهم لكنّه لم يخطئ فى أرقامهم ، كانوا يأملون أن ينتقلوا لحجرة العمل ليناديهم النّاس بأسمائهم التى وُلدوا بها : "بهيرة ، صفية ، أم هاشم ، أبو ريالة ، عزيز ، بهانة ، نصيف ، شريف ، حسين ، كريمة" .

كانت أرقامهم العشرة محفوظة فى ذاكرته ، ينادى القاتل على نصيف دون اعتدادٍ بكرامته وسط العمل يا (ثمانية) إنت شغلتك إيه ، فيرد نصيف : "زى ما إنت عايز يا أستاذ" ، فيقول القاتل : "لسّه دوركم ما جاش يا كلاب .. سيأتى يوم الإحصاء .. إياّكم أن تنسَوا أسماءكم" .

كان يسأل عزيز بسخرية : "إنت رقم كام؟" فيردّ بخنوع : (خمسة) يا ريس ، تذكّر عزيز رقمه وسط الجمع ، فقال بسخرية : "مع ذلك كان يمنّ علينا كل شهر بأظرفٍ كبيرة مملوءة نقودًا ، قال بصوتٍ عالٍ وبجاحة أحرجتنا للأبد : ليكوا عوزه فى يوم يا كلاب!"

وفى يومٍ طردهم من الحجرة ، وادّعى التوبة ، قالوا له : "أين نذهب؟ من يقبل أن يكرى أرقامًا بمكتبه" ، قال : "لا أحتاجكم .. نسيت الإحصاء .. لن أتذكّركم بعد اليوم" .

أخذتهم زوية الكئيبة وعبده المزوّر وبطرس الخسيس من بيوتهم صباح يوم المحاكمة ؛ ليشهدوا على ظلمه بخنق طاقتهم ، وتحويلهم ببراعةٍ لأرقامٍ لا يصلحون إلاّ للعد ، قال أبو ريالة بعد أن مسح فمه : لا يستحقُّ الحرق ، يكفى أن نحبسه طوال العمر فى حجرة ، وننادى عليه كلّما شاهدناه : "يا عديم الرقم!!"

البشاير

كان المتهم المحكوم عليه بالشنق مقدمًا يستعجب من حكاياتهم ، فهم الذين طالبوه بالبراءة مقابل العمل ، لم يجبر أحدًا على ارتكاب جرائمه ، سأل نفسه بحسرة : "من يرغب فى التوبة ، تُعلن فضائحه ، من ملأ قلوبهم بكلّ هذا اليأس؟!! كان يعتقد وهو يقدم الثمن أنّه يسعدهم ، ويُغذّى مشاعر قلوبهم بالأمل.

طوال فترة المحاكمة طارت "بشاير العصافير" الصغيرة فوق رأسه ، لم يكن يشاهدها إلا قلبه ، كان انشغالهم بالأحداث واستعراض جرائمهم تمنع رؤيتهم لأجمل مشهدٍ تمنّاه فى حياته .

"بشاير العصافير" تطير شمالاً ويمينًا ، تقع على الأرض تلتقطها الأمّهات ، تعلّمها الطيران والقفز بحبٍ منقطع النّظير ، أعماهم الغضب عن رؤية النُّور ، ثلاثون شخصًا اعترفوا بجرائمهم علنًا فى الميدان ، وأعلنوا قتله كثمنٍ لخيانته ، وإعلانه التّوبة ووقف تدفق الأموال .

وقف وسطهم مزهوًا رغم القيود والدّم النازف من فمه وأنفه وعينه وجبينه وصدره ، قال لنفسه : "الضحايا لا يحتاجون البراءة ، أتفضّلون المال عن عينى الصافية؟ .. تذكّر حكمة الجدَّ العجوز "ما يمكن تقديره بالمال يجب شراؤه" إنَّ ثمنهم التّافه يجب ألا يدعونى للحزن عليهم!!

أشار لكبيرهم ليفك خيوط فمه ، داسوا على بطنه بأقدامهم ، رموه أرضًا ، قال أبو ريالة باصقًا رذاذه فى وجه الجميع : "مازال يأمرنا المجرم ، طلب كبيرهم الانتظار لسماع صوته ، أمرهم بإزاحة الكمامة من على فمه" ، فقال بهدوء : "ما المبلغ المطلوب لتنسوا جرائمى؟" قال كبيرهم : "مليون جنيه" ، حرّر بيده المقيدّة شِيكًا بمليون ونصف ، وقال : "نصف مليون لمكاتب بيع الأحلام الجديدة ؛ لتنظّيف الميدان وزرع الأشجار" .

رفض الجميع ، وقالوا فى غلٍّ لكبيرهم : "كيف يمكن تركه حرًّا مرة ثانية؟!" لكنهم جميعًا نظروا بخسّة لأرواحهم ولبعضهم البعض ، فتأكّدوا باحتياجهم للقرش ، قال زهران الدنىء : "تأخذ الثمن ونقتله" ، لكن "بشاير العصافير" كبرت وطارت وملأت الميدان لتعمى أعينهم ، فتركوا قيوده وجرّوه خوفًا من قلع عيونهم لقبولهم الثمن .

أشفقت عليهم الطّيور ، وهم يهرولون نحو المنازل بالأظرف المملوءة بالأموال معتقدين القصاص من القاتل ، صرخ زهران الدنىء وهو يجرى أمامهم خوفاً : "كان يجب قتله وأخذ الثمن" .

قال الخسيس بحسرة ، والناس مرتاعة من مشهد قبوله الخنوع طوال يومٍ كاملٍ قبل أن يَعُمَّ الظّلام : "تسيتم مرمطته بكرامتكم ، ومسحه بالشوارع مشاعركم ، القاتل خسيس لا يمكن هزيمته أبدًا" .

أصدرت زوية الكئيبة إشعاعات حزينة لتجلب اليأس فى نفوس الجميع ، استدعت دون أن تدرى ذاكرة الذّلّ والحقد والكره رغم وقوفه من جديد وسط الأموات المرعوبين من الماضى .

الوحيد الذى كان يرمق وجوه الجميع ، وهو يحكى جرائمه منزويًا فى الخوف هو زهران الدنىء كان يرغب فى إعادة الأمل المفقود بالشّرف بعد تحوّل أبيه لمرشدٍ لضابط القسم علنا.

يسحب المخبرون أباه البائع المتجول للقسم ؛ ليهينوه ويأخذوا بضاعته ، ويضعوه بالتخشيبة ليمارس معه المجرمون الجنس عنوة ، كان والده يحكى حكايات الذلّ بفخر ؛ لأنّه تمكّن فى النهَاية من الخروج من جحيمهم ، يحُضر الطّعام لأبنائه ، ويسعد بالنّوم آمناً وسطهم بالحجرة الوحيدة التى سلّمتها له السلطات أثناء تنظيفها الشوارع من المتسوَّلين .

قال الدنىء لنفسه عندما وضع والده الخبز والجبن أمامهم : "إنه طعام الذّل ومع ذلك كان يستطعمه ، فأكل وشرب بدناءة من خير الوالد الشَّقيان ، صنعت الأم المكلومة التى تُشعُّ ألمًا بنفسها ملابسه وحذاءه ؛ لتدفئ جسمه النّحيل ، كانت تأمل أن ينجح ابنها زهران بالمدرسة والجامعة ، لتفخر بآلامها" .

كانت تقوم رغم المرض من النّوم تغسل ملابسه ، وتنشرها ببلكونة الحجرة الوحيدة التى يسكنونها ، قالت فى فخرٍ حين شاهدته يمشى بالشّارع يهزّ رأسه عمّال على بطَّال : "المنقذ ، سوف أخدمه بعينى ليستكمل تعليمه ، ويمنع أذى المخبرين عن والده" .

حين نادى المنادى بقدوم رئيس مجموعة المساواة بين الناس بالحى ليوقف التعذيب ، اعتقد زهران أنّه وجد ضالّته ، ارتبط بالمجموعة وعاش معهم سنوات يحلم بمحو الذّلّ ، طلب زعيم المجموعة منه كنس الحجرة وتنظيفها ، لم ينطق الدنىء ، سأل نفسه : "كيف يهتفون كلّ يومٍ بسقوط الذّلّ ويدوسون كرامتى؟! بصق الجميع بوجهى ، ولم يحّسوا بإهانتى" .

حين قابله المتّهم على المقهى ، قال بفخرٍ أدهش القاتل : "يمكننى جمع أصوات الذلّ من القرى والمدن ، وأوثقها فى طريقةٍ باهرة لمن يشاهدها" ، قال بفخر : "إننّى أُجيد استعمال الكمبيوتر ، وصناعة الجداول التى تفضح الآهات المتكرّرة للمذلولين ، إننّى فريد عصرى " .

أُعجب القاتل بخبرته ، وأعطاه المظروف المملوء بالأموال ، وقال : "هنشوف يا زهران هتحسّس قُرّاءنا إزاى بذلّ النّاس" .

بعد سنة واحدةٍ من همّته فى تجميع أصوات النّاس المذلولين ووضعها فى جداول، تخطّى الأرقام ليقيم أعمدةً موازيةً للإجرام ، قال القاتل بجبروته فى وجهه : "لا أحتاج آهاتك ، اذهب بعيدًا ولا تُرنى وجهك الدنىء مرّة ثانية" .

ذُهِل زهران لأنَّ ظرف النقود الذى يسلّمه القاتل كلّ شهر يُحيى أمله بعلاج أمّه ، ووقف إهانة والده بقسم الشّرطة بعد أن وافق الضباط على عمله كمخبرٍ رسمىّ ، قال المأمور يوم تعيينه : "قضى عمره كلّه بالشارع يبحث عن الرّغيف ، فلن نتركه يموت من الجوع!"

اعتقد أنّ أموال القاتل يمكنها وقف ذل أبيه ، وألم أمّه ، وهروب كوابيسهم وآهاتهم التى تشق اللّيل الحزين ، لكنّ القاتل قال : "لا أحتاج تقاريرك عن الذلّ ، أعلنت التوبة ، لن أعطى الأموال لأمثالك ، اغرب عن وجهى" .

لم يتردّد الدنىء ، وتوجّه لمكتب السّلطات ؛ ليعلن بدناءة أسماء كلّ الذين قابلهم القاتل ومهنهم وأماكن إقامتهم ، قال وهو يحكى عن الضّحايا الذين يعاونهم القاتل : "إنهّم شركاؤه لا تأخذكم بهم رحمة ، فهؤلاء القتلة يستحقّون الإعدام" .

ومع ذلك ظلّ يصرخ فى النّاس العائدين من المحاكمة ، وهو يتقدّمهم جريًا مبشرًا بانتقام القاتل الذى استطاع أن يفدى نفسه بأمواله ، قائلاً فى حسرة : "كان يمكن قتله ، لماذا تركتم القاضى يفكُّ قيوده؟ ارجعوا واحرقوا جثّته" .

اندهش النّاس حين داسه القاتل بحذائه ، ولم يفتح فمه ، وسأله : "من أنت ؟" ردّ زهران بفخرٍ: "أنا الدنىء نِسيتنى يا أستاذ !"

القسم الثالث : القاتِل

الثّمن

ليلة الاتفاق على محاكمته عرف أنّهم سطّروا بعماهم لنجاته ، سحبوه مقيّدًا ولفّوا به شوارع الحى الذى أرهبه يومًا ما ناشرين بحكاياتهم قصص خيانتهم واحتيالهم عليه ، ادّعوا أنّه أخذ وحده كلّ العطايا رغم أنّه اتفق معهم على نصيبهم من الأموال مقابل البراءة ، خدعهم طمعهم ، تصوّروا أنّهم سينالون البراءة والأموال .

قال لكبيرهم بعد أن دخل اللّيل ، واستمع المتهم بعزّة نفس لجرائمهم : "ما المبلغ المطلوب؟" قال له : "مليون جنيه" .

فحررّ الشيكً وقال : "اعتبر نصف المليون هديتى لزرع الشوارع بالزّهور " ، حرّروه من الخوف دون أن يفهموا أنّهم قيّدوا أنفسهم ، أحسّ وقتها أنّه المنصف العادل ، فقال : "أخذوا جزاءهم" .

ردّد بين نفسه ، والسلطات تفكّ قيوده : "الأبرياء سيموتون بالخوف ؛ لأنّهم دخلوا نن عيونى ليشاهدوا جرائمهم .. لن ينفعهم المال الذى سرقوه منّى للنجاة من الجحيم" .

كان يكفى شهادة ثلاثين شخصًا بالميدان على قتله للجدّ العجوز وعمدة العصّار ، قال الجميع للسلطات : "ليس غيره فى الحى يمكنه القتل ، أبدعوا فى عرض ماضيه ليظهروا جرائمهم ، تصوّروا ببراعة أنهّم سيرتاحون منه للأبد بعد أن قبضت عليه السّلطات وتسلّموا الثمّن .

سحبته السلّطات غارقًا بخيانته ، لم تحقّق فى ملء الميدان بالدّم ، لكنّهم سألوه بغلٍّ عن مكان وجوده ليلة مقتل العجوز وسيد العصّار ، كانت شهادة الجميع على غدره كفيلة بأن تؤكّد تحرّيات المباحث فى القضية بأنّه القاتل ؛ لأنّ سيرته مليئة بالخداع والقسوة .

لكنَّ كبير المخبرين السريين كتب كلامًا مختلفًا ، فقال : "إنَّ الحيرة التى أصابت الحى ، ونحن نكتب تقريرنا دفعتنا لكتابة الكلمة الأخيرة ، إنَّ المتهم لم يقتل العجوز الطّيب الذى لم يعرف أحدٌ اسمه وعمدة محمود على الشهير بعمدة العصار.

حين أفرجت عنه السلطات بعد شهرٍ نزل درجات سلم قسم الشرطة ، ونظر إلى الحى ، وقال : "سوف تدفعون الثمّن" ، أكد المخبرون السرّيون الذى لم يعرف أحد الأجهزة التابعين لها بأنّ مندوه حلمى موسى الشهير بموسى القهوجى هو قاتل العصّار بتدبير من صبيّه الأمين بحبح جبرونى مخلوف فى ليلةٍ مظلمة .

ذكرت تحريات الشّرطة السرية التى قال الناس إنهّا على علاقةٍ بالقاتل ، أنَّ الشر تمكّن من الانتشار فى تلك اللّيلة ؛ ليعمى قلوب الملتحين ، ويقرّروا التمثيل بجثة الجدّ العجوز ؛ لأنه خالف شريعتهم فى الكفر !

ظلّ القاتل شهرًا مختفيًا بشقّته يعالج الجرح بسبب اتهّامه غدرًا بالقتل ، عالج أيامًا وليالى كثيرة الآلام ، جفّف مشاعره البريئة المشبعة فى الجرائم ، كان يقول وهم يعودون جميعًا لأحلامه ليعترفوا بجرائمه : "أَفقد ذاكرة الكُرْه التى فتحوها بقلبك؟ اخرج من روحهم المملوءة بجرائم الوِشاية والتزوير والدناءة والكآبة ، ليس أمامك إلا فقدهم لترى بشاير العصافير من جديد" .

بعد شهر كامل لم يرَ أحدٌ وجهه ، تغلّب على جروحه وقرّر النّزول للشارع سخروا من هيئته ، ذُهلوا كيف استطاع أن يعود رغم كلّ الجروح التى أصابت جسده؟! لم يتمكن من استكمال المرور بالشّارع الخلفىّ فقرر العودة ، كان سعيدًا بالرحلة القصيرة التى لم تستغرق دقائق تأكّد فيها أنّه مازال حيًا .

دخل المنزل مبتهجًا ، فتح باب الحمّام ، اغتسل باللِّيفة والصّابونة ، كانت رائحتهم النتّنة تملأ الحمّام ، أغلق الدّش ، ألقى بملابسه كلّها فى الغسّالة ، ملأها بالمسحوق لتزيح الرّوائح النتّنة بصرف المنزل ، فتح الدّش ليتطهّر منهم، كانت رائحته نظيفة ، لبس ملابس جديدة ونام .

فى هذه الليلة عاشرهم جميعًا الرَّجال والنَّساء ، كان يتأوّه من اللّذة ، كانوا سعداء بالمبالغ التى منَّ بها عليهم ، تفنّنوا لإمتاعه ، لا يستطيع أن ينسى رائحة زوجة المزوَّر ، وهو يأخذها للشّقة الجديدة التى استأجرها .

قال المزور بفخرٍ لزوجته الشامخة : "القاتل صديقى يمدّنى بالبراءة والأمل" ، نظرت زوجته إلى المتهم ، وقالت : "متشكرين يا أستاذ متتأخرش علينا" ، طارت بشاير العصافير فوق رأسها مبتهجة بلون قميص نومها الأحمر .

طلب القاتل من المزوّر بعد ذلك أن يسافر للبلاد البعيدة ليتعلّم فنّ مضاهاة الأوراق ، بكى المزوّر ، وقال : "لن أترك زوجتى تنام بمفردها ، توسّل للقاتل أن ينام بمنزله ليحرسها حتّى يعود" .

فى الليالى الطويلة الكثيرة التى نام فيها عبده المزور خارج الشّقة التى كتب عقد إيجارها المتّهم كانت هند زوجته تتفنّن فى إمتاع القاتل ، تلبس ملابس ناعمة شفافة بألوان باهرة ، فيظهر ثديها كاملاً نافر الحلمات ، وتقول للقاتل : "اقترب منّى لتشم رائحة أنوثتى ، كانت مبدعة وهى تضع شفايفها ولسانها النّاعم على قضيبه، حين امتلأ فرجها عن آخرها ، أدخلته حجرة النّوم التى اشتراها المتّهم لـ عبده المزوّر ليتزوّج عليها ، وقالت : "لا تتكلم" ، فتحت فخذيها على آخرهما ، كان فرجها المتّقد ممتلئاً ، قالت : "تحسسه لتعيد قلبى النّابض" ، شدّت القاتل فوقها ، وقالت : "اجعل عينيك مفتوحتين لا تغلقهما أبداً لتشفى دمى" ، دخلت لِنَنِّ عينه امتلأت نشوة ولذّة ، لم تكن تتصور يومًا أن تحرم من رائحة فحولته ، جاءت للميدان الواسع متأبّطة يد المزور ، وقالت : "المجرم حرمنا الحياة ، لا تقتلوه اتركوا قلبه النّابض لأداويه بعطشى" .

لم تمر الليلة قبل أن يستكمل الجمع سرد جرائمهم وقبول الثمن ، فكوا قيودهم وهربوا ، جاءه حمادة الواطى راكعًا طالبًا الرحمة ، قال القاتل حزينًا : "كيف أتيت معهم لتشهد على جرائمك ، لم يغفر لى عندك كل ما قدمته ، عاملتك كأخٍ أصغر، حين جئتنى صغيرًا من القرية البعيدة قابلاً للهزيمة ، قلت لك يا حمادة : "تذكّر أمك وإخوتك الجائعين فى القرية منتظرين عودتك ، احمد الله على عطاياه ، كنت أسلم لك المظروف الكبير ، وأقول اقتسم المبلغ مع أمّك وإخوتك يا واطى.. هل تتذكّر البسمة التى كانت تملأ وجهى كلّ شهر!"

توسّل حمادة إليه ، قبّل قدميه المجروحتين ليغفر جريمته بالشهادة ضدّه ، لكن القاتل قال له بصوتٍ مسموعٍ على الرّغم من امتلاء قلبه بالجروح : "عندما اختاروا بنتًا من البلد ليزوّجها لك ، لتجمع أموال العطايا التى أمُنُّ بها عليك ، عرضتها علىَّ ، قلت لك : أنت ابنى وزوجتك مُحَرّمة علَىّ" .

"لكنّك يا واطى لن تنسى نهاية يومٍ شتوى حين سحبتها من يديها ، ودخلت حجرتى بعد انتهاء العمل وقلت بخنوع : "رجاء زوجتى ، سأتركها بالمكتب معك حتّى اشترى بعض الهدايا للأهل وأغلقت باب الشّقة علينا ، كنت رتبت لخيانة رجاء فى انكسارٍ أذهلنى ، فهمت ذلك حين عرّت فخذيها ، وقالت : "أم حمادة فى البلد عضتنى فى فخذى يا أستاذ ، كان لباسها

القماش البنفسجى يثير شهيّتى ، قال المتهم لها : "أنت مُحرّمة علىّ غطّى نفسك ، خلعت جلبابها ، كان قميص نومها بحملات الكتف يظهر ثديها عاريًا ، أمسكت يدى ، وقالت : "أخت حمادة لدغتنى فى حلمة بزي وفركت حلمتها بأطراف أصابعى ، قالت : "يا أستاذ حمادة قاللى على كل حاجة ، أخلعتنى البنطلون ، أمسكت قضيبى المنتصب ووضعته بنهم بين يديها ، شممتُ رائحة أنوثتها ، سحب القاتل الطرحة التى غطّت بها شعرها المحلول فأثارت شهيته ، أمسك صدرها بيديه الاثنتين ، قال لحمادة : "أرى ما يجول بخاطرك لتكمل مشهد خيانتها ، هل تتذكر كيف بركت فوقى ، وأدخلت بكلّ قوة فرجها فى قضيبى ، كنت كالطائر فى يديها!"

"حين قذفت مراتٍ عديدة قبل أن أترك حضنها ، قالت : "حمادة قاللى على كلّ حاجة يا أستاذ ، إنت بتحب تركب النسوان من وره ، شدّت لباسها حتّى ركبتيها ، نامت كالكلبة ، ظهر فرجها أحمر ممتلئ محاط بفخذيها النضرتين ، أدخلته فى قلبها ، صرخت ، وقالت : "حمادة قاللى على كلّ حاجة ، كلّ يوم خميس هاجى أنظّف المكتب معاه ، وأشوف طلباتك" .

رغم خدمة الواطى للقاتل بخل عليه ، وعايره بالبيت الذى اشتراه له فى البلد والشقّة التى أجرّها له بالقرب من المدينة حتّى تكون رجاء زوجته قريبة منه ويتوقف شجارها مع أهله ، مع ذلك حين أعلن المتّهم توبته ، وكان لا يرغب فى الاستغناء عن الواطى قرّر حمادة أن يأخذ موقف الآخرين ، وتركه وحده يواجه جرائمهم .

قال للقاتل أمام الجميع : "أنت تعرف كم تسببت جرائمك فى انكسارى ، حين رفض زملائى العمل معك بمكتب بيع الأحلام وقبضوا الثّمن ، عادت لى روح الرّجولة والشرف ، وقررت تركك وعتق زوجتى رجاء من معاشرتك أيها الغادر ، أنت لا تستحقّ القتل أنت تستحق الحرق" .

توسّل حمادة أن يغفر القاتل تطاوله ، فقال : "عبده وبطرس ويحيى أجبرونى ليلة الأمس على سرد كل هذه الأحداث ؛ ليؤكّدوا جريمتك ويلوثوا سمعتك" .

مسح المتّهم الدّم عن فمه ، وقال : "لم أعاشر زوجتك ؛ لأنّك أخى الصغير وهى مُحَرّمة علىّ" ، وصرخ فيه : "قبلت الثمن يا واطى" ، وغادر الميدان مملوءًا زهوًا بنفسه بعد أن خلت الشوارع من الناس ، فتح باب شقّته ، دخل الحمّام ، اغتسل جيداً لينظف جسمه وروحه من الدنّس ونام نومًا عميقًا ، لم يستمتع فى حياته بمراتب السرير مثلما حدث فى حُلم هذه الليلة .

حين صحا من النوم مبتهجًا قال لنفسه : بالرغم من إغلاق مكتب بيع الأحلام ، لا يفارقنى تذكّر جرائمهم ، عاوده الألم ، لم يهتم ، لبس جاكتته الكحلي ، غادر الشقّة ليأخذ بثأره ، نزل درجات السلم الحجرى لمنزله ، وجد نفسه مرَّة أخرى فى مواجهتهم ، نظر إلى مُسعد الحلاّق فى دكّانه ، فوجده خانعًا رغم المال الذى أغدقه عليه .

وقف وحده على عربة الفول يأكل دون أن يجرؤ أحدٌ على الاقتراب ، رفض بدر الفوّال أخذ المقابل ، قال القاتل لنفسه : "أنعمت عليه بالمال فى الأيام الخوالى .. يقدم الخير رغم قبضه للثمّن مقدّمًا ، انهار الفوّال ، وقال بقهرٍ فى خنوع : "ده أقل واجب يا أستاذ" .

نادى على المكوجى ليفتح الراديو على إذاعة الأغانى القديمة ، خرج المكوجى من المحل ، وقال بصوتٍ عالٍ بفخر : "أيّ أوامر يا أستاذ ، المحل كلّه تحت أمرك؟" لم يفهم ما حدث ، اندهش من عودة خوفهم ، كلّما قابل أحدهم بالطّرقات ، سأل نفسه فى حسرة أهؤلاء هم المجرمون الذين قيدونى منذ شهر بالميدان ، واعترفوا بجرائمهم وسلّمونى للسّلطات؟!"

جلس على المقهى يرمقهم ، ساروا أمامه منحنين ، لم يجرؤ أحدٌ على تكرار النظر بعيونه ، تجاوز الشر فقبلوا بخنوعٍ قبض الثمن .

أخافهم تضحيته بنفسه وشعاع عينه البرىء ، خدعوا أنفسهم وهم يطالبونه بالمال ، وحينما علم أنَّ الخلاف على المال تذكّر حِكمة الجدَّ العجوز : "يمكن شراؤهم! العجزة كان يمكنهم الرّفض وتنظيف ماضيهم وإنتاج الضمير ، لكنّهم ابتهجوا بالمال ، فقبلوا الذلّ للأبد ، تسلّموا الثمّن مرعوبين ، انبهر ببراءته واستسلامهم.

علم أنّه يملك شئ لا يمكن تقديره بالمال ، قام من على المقهى دون دفع الحساب أو وداع ، وقال لنفسه : "نجوت منهم السّفلة" .

الجُرح

قال المتهم بعد مرور شهرٍ على محاكمة الميدان : "كلما تذكرتهم تحسست الجرح الممتلئ بالصّديد ، أُسَرَّح بيدى لإزاحة القشرة .. يزداد الألم وينتشر بجسدى .. أُنزل يدى محاولاً نسيان عيونهم المملوءة بالشرّ ، أذهب للمطبخ ، ألتهم برتقالة بقشرتها ، أدخل الحمّام محاولاً التبوّل ، يأتوننى مرّة أخرى ، أتحسّس جرحى ، أحاول نزع القشرة ، يعاودنى الألم ، أصرخ مانعا فقع الجرح .

أعادته دقات الباب المتسارعة للحياة ، خرج من الحمّام دون اغتسالٍ ، وفتح الباب ، قال حماصة جاره : "عامل إيه يا أستاذ ، فى حاجة عندك؟!!" قال المتهم ليُطمئن جيرانه : "لا تقلقوا ، لا أحد بشقّتى ، فقط حلمت بالمجرمين وشجّ أحدهم رأسى ، كلّما حاولت إزاحة قشرة الجرح أتألّم ، "مال المتهم على جاره ليريه رأسه ، ويقول : "مفيش جروح يا حمادة ، إنت شايف قشرة ولاّ صديد" ، طبطب عليه حمادة ، وقال : "معلش يا أستاذ بكرة يبعدوا عنك" .

أغلق الباب بعد أن تأكّد من الجيران أنّه كان يحلم ، تذكّر الحمّام فدخل للاغتسال ، لكنّ المجرمين حالوا دون قعدة الحمام ، قال يحيى الواشى : "أمامك طريقان لا ثالث لهما إمّا إزاحة القشرة مرّة واحدة من رأسك بالسّكيِّن فينفجر الصّديد بوجهك ، وتتلطّخ ملابسك أو ترك الجرح ينزف كلّ يوم ؛ لتتألم كلمّا نمت متذكرًا قلبك الميت" ، قبل أن ينطق استكمل يحيى : "الحل الثانى مناسب لك لأنّك جبان فلن تجرؤ على إمساك السّكين وإزاحة القشرة .. رجع مرّة ثانية للسّرير دون أن يغتسل ونام .

جاءه الجدّ العجوز ، وقال : لا تخف منهم ، جُرحك ليس آخر الجروح ، يمكن شفاؤك وتطهير رأسك .

وضع يديه على رأس المتهم ، وقال : " ليست هناك جروح .. رأسك أنشف من الحجر" ، أمسك يده ووضعها على رأسه ليؤكّد شفاءه ، لم تكن هناك جروح لكنّ الألم مازال موجودًا .

قال العجوز : "شىء طبيعى لأنّك دخلت نِنَّ عيونهم ، وهددّوك بفضح جرائمهم ، لا تخف ، لم يلمحوا طيبتك حين جاءتك "بشاير العصافير" تغرِّد حولك يوم محاكمة الميدان ، لكنَّك ببراءتك دخلت جحور أرواحهم الشَّريرة وخرجت بعد ملامسة حقدهم ، يمكنك علاج الألم إذا تمكّنت من نسيان جحيمهم ، والعودة لبراءتك" .

صحا من النوم دون صراخ ، دخل الحمام ، خلع كلّ ملابسه ونزل تحت الدّش وفتح المياه السّاخنة على جسده ، أمسك الصّابونة واللّيفة ودعك نفسه بقوة ، ملأ الصّديد وبقايا الدّم أرضية الحمام ، قال لنفسه بعد أن عادوا للحمّام : "مازالت رائحة خِسَّة بطرس وحمادة الواطى تملأ الشّقة" .

وضع الملابس بالغسّالة وملأها بالمسحوق ، داس على الزّر لإخراج الرّائحة من صرف المنزل ، نزل تحت الدّش مرّةً أخرى ، جرى الماء من رأسه على جسده يطهّره ، ارتاح للحظة ، تحسس رأسه ليتأكّد من شِفاء الجرح ، قال بصوتٍ عالٍ : "لم تعد هناك جروح" .

أمسك الجاكت الكحلى بيديه وقرّر مغادرة الشّقة ، جاءوا مجتمعين ، أرعبته نظراتهم ، قال عبده المزوَّر فى غلٍّ : "لن تغيب كثيرًا فى الطّهر يا قاتل ، ستعود سريعاً لأجرحك وأُنجّس روحك" .

نزل درجات سُلّم منزله دون أن يعيره اهتمامًا ؛ لأنّ الجدّ العجوز جاء أيضًا ، وقال : "طهِّر روحك من جرائمهم" ، دخلت عيون الشيخ قلبه ، ابتهجت روحه ، تحسّس رأسه وفركها عدة مرات ، وقال : "ليس هناك قاتل .. نظر إلى ملابسه النظّيفة بألوانها اللبنى الزاهية ، وقال : "رائحة الخوف خرجت منها ، إنّ الماء السّاخن والصابون ، أزالا العفن وطهّر دمى ، لم يعد هناك ألم" .

قال لـ بدر الفوال بعد أن وقف أمام العربة : "واحد فول بالزَّيت الحار" ، ردّ بدر بذلٍّ : "حاضر يا أستاذ" ، اندهش لعودة حاجز الرّعب بينه وبينهم ، أعطاه الثمّن وذهب للمقهى ونادى على القهوجى الجديد ، جاءه خائفًا بالشيشة والشّاى الساخن ولم يفتح فمه ، صبّح عليه مسعد الحلاّق بعد أن قام مفزوعًا من على كرسيه فى انكسار ، اندهش من طيبتهم ، وقال : "الأرقام الضّحايا لا تستحقّ كلّ هذا الذّل!"

حين مر جاره من أمامه نظر داخل عيونه ، اكتشف أنّه شاهد جرائم الليلة الماضية ، تجرّأ بعد سماع صراخه بالأمس ، ودقّ الباب وشاهد بعيونه جروحه ، تمكّن من الدخول لِنِنِّ عينه ، قرّر القاتل فى اللحظة نفسها تطبيق القانون لتحويل حياة الجار إلى جحيم ، لم يردّ سلامه ، ظلّت عينه مسلّطة على ظلّه حتّى اختفى من الشارع كلّه ، وقتها صرخ فى القهوجى الجديد ليغيّر الشيشة ، وقال : "أنسيت يا فيومى ، السلطة لها ألف عين ، اهتمّ بتحذيرى ، ارفع الكراسى من الشّارع لاحترام حقوق الناس فى السّير" ، قال القهوجى الجديد لنفسه فى

رهبة : "يجب تحاشى غدره" ، حين قال لصاحبة المقهى المعلمة فهيمة زوجة القهوجى الأولى حكاية القاتل ، قالت بفخر : "أنت لا تعرف براءته" .

الثأر

كشفت التحرّيات السرّية تدبير القهوجى لمقتل عمدة العصّار ، اتفق مع بحبح صبيه الأمين بعد أن شرب معه الحشيش بمنزله ، وسمعتهما عديلة زوجته الثانية التى كانت تتدلّل بقميص نومها الأحمر وصدرها العارى ، حين قالت : "عايز حاجة تانى يا معلّم قبل ما أنام" ، دون أن يلتفت لها ، ردّ موسى : "متشكرين يا معلّمة" .

كان بحبح يعشق عدّولة ، الشىء المذهل الذى كشفته التحرَّيات هو أنَّ موسى كان يعرف علاقتهم ويسهّلها ، لأنّ بحبح يعمل عنده مقابل خدمته وإمتاع عدّولة .

عرف الجميع إبداع القهوجى لطرقٍ مذهلةٍ فى مغالطة الزّبائن ، وإخفاء نقوده بعيدًا عن زوجاته وأولادهن ، لكنهّم ذُهِلوا باستمتاعه آخر الليل بنظرات بحبح الشهيّة لزوجته ، وهى تقدمَّ لهما الطعام ، كانت خلاعة زوجته أمام صبيه تشبع غرائزه ، مع ذلك خطّط لمقتل عمدة العصّار ؛ لأنّه عاكسها هي وصديقتها أمام الأهالى ، لم يجد أفضل من بحبح لينفَّذ الخطّة ويفرم لسان وخصية العصّار بالماكينة ثأرًا لكرامة عدوّلة العايقة بالحى!!

خرس الحى حين علموا أنّ الصبية الملتحين الذين ملأوا الشّوارع بالدم يوم مقتل الجدّ العجوز ، هم مرتكبو جريمة التمثيل بجثّة الشيخ لاتّهام أميرهم بالفجور والخروج عن الدَّين ، حين قال له بهدوء : "الدين يسر ، لا تصعَّبوا على النَّاس الحياة يا كفرة" .

فى هذه اللّيلة قال كبيرهم للشيخ : "لا تتدخّل فيما لا يعينك أيّها العجوز ، خرجت قوّة الجد من قلبه مرّة واحدة ، حرقت روحه الشَّريرة ، باس قدمه ليغفر له تطاوله ، قال العجوز : "لا تنشر الخوف يا مجرم ، الحى ملىء بالضّحايا ، احلقوا لحاكم وامتهنوا البناء ، الله يفضل العبد العامل على المصلّى".

ردّد الملتحون كلام العجوز بدهشة ، وسخروا وهم يرحلون لشارع الظلام ، قال كبيرهم : "كيف تجرؤ وتسخر من أهم فروض الإيمان بالله؟! .. الصلاة ليست مهمّة ، قال نائبه فى سواد الليل ، كاشفًا عن أسنانه اللامعة : "فليُقتل الكافر" .

"لا يكفى" ... قال كبيرهم ، واستكمل : "يجب التمثيل بجثّته " ، فى الليلة الحزينة ، أمسكوا السكاكين وربطوا رؤوسهم بشاراتٍ غريبة لم يعتدها الناس ، كمموا فم الشّيخ العجوز وهو نائم ، جرّوه بالشارع دون خشيةٍ أو احترامٍ لوقاره ، كانوا يضربونه بالسّكاكين فينزف

جسده ، امتلأ الشّارع بآثار جريمتهم ، حين وصلوا إلى باب الجامع ، كان العجوز قد قارب على الموت ، قال كبيرهم : "العمل أهمُّ من الصلاة يا كافر ، أَنُغلق بيت الله ونذهب للمصانع يا فاجر؟! ... ادفع الثمن من حياتك" .

شقّ رأسَه سيفُ الغدر ، قطعوا رقبته وعلّقوها على باب الجامع ، فَهِمَ الجميع الرَّسالة ، وقالوا ساخرين : "عاد الإسلام من جديد!"

بعد شهرٍ من حبس القاتل بتهمة الجدَّ العجوز قامت السّلطات بالقبض على عبد النبى الفكهانى بتهمة التستُّر على مقتل العجوز ، شاهد منزوع المشاعر الصبية الملتحين الذين يلبسون الجلاليب البيضاء ، وهم يعلّقون رأسه المشقوق على باب المسجد ، وادّعى كذبًا أنّ القاتل هو مرتكب الجريمة .

استحق الفكهانى اللّعنة والحبس بسبب تستّره على جريمة مقتل الجدّ العجوز ، أىُّ قلبٍ منزوع البراءة جعله يتركهم يجرُّون جثّته المتهتَّكة بالشوارع نازفة دم سكاكينهم المتهوَّرة ، ولم يمنعهم أو حتّى يقول لنفسه : "كان رجلاً طيبًا لا يستحقُّ القتل" .

سمع الناس بغرابة عن قيام عبده وبطرس ويحيى بالاتفاق على الاعتذار للقاتل ، قالوا : "ظلمناه كثيرًا وطعنّا قلبه ، لكنّ المتهم حين رآهم ونظر إلى نِنِّ عينهم بالميدان بعد خروجه من الحبس وتبرئته من القتل ، اختفوا خانعين دون أن يجرؤ أحدهم على النُّطق بالاعتذار أو حتّى تذكّر براءته ، مرّت الأيام الأخيرة صعبة على المتّهم الذى لم يعرف أحدٌ شيئًا عن موطنه أو صباه ، نعته أبو ريالة يوم محاكمة الميدان بعديم الأرقام والذَّكريات ، ترك أهله كى يعيش وسط الحىّ باللّيل مزهوًا بنفسه ، ويختفى طوال النَّهار بمكتب بيع الأحلام .

كانت أمّه وأبوه يأتيان إليه فى أحلامه يناشدانه ترك الحى الذى أنكره ، لكنّه أبى أن يمشى أو يسمع نصيحتهما ، أصرّ ببراءة على إدانتهم جميعًا قبل الرحيل ، لم يكتفِ بظلمه ، واعترافهم بجرائمهم ، قال يجب أن يدفعوا ثمن الاعتراف .

جلس وحيدًا أيامًا كثيرة بعد محاكمة الميدان ، والاستيلاء على نقوده ، يستعيد الذّاكرة التى مكنته من إدخال الرّعب بقلوبهم دون أن يمسك آلة الخوف أبدًا .

فكّر بِنِنِّ عينه التى يخُفى فيها سرّ البراءة ، قال لنفسه مذهولاً : "اختبرت مشاعرى ونجحت ، اليوم عرفت نفسى بعد إدانتى من الضّحايا الأبرياء ، أنا المتّهم" .

ملأ هواء شقته ضحكًا ، وهو يلبس ملابسه مُقَرَّرًا الرّحيل عن الحى الذى يمتلئ بالأبرياء الضّحايا ، قال لنفسه : "ليس لى مكان بينهم ، يجب ألا يفخروا بوجودى معهم" .

حين تذكّر وعده لأمّه وأبيه عند الوداع على باب المنزل فى القرية البعيدة ، قال يجب الأخذ بالثّأر ، أعاد الحقيبة للحجرة ، وخرج للشّارع مزهوًّا بعودة مشاعره .

المُصارحة

تذكّر المشهد الأخير لمحاكمة الميدان قبل حضور السّلطات للقبض عليه بتهمة قتل الأبرياء ، وهم يجتمعون حوله معترفين بجرائمهم وينوون التهام قلبه ، وسألهم : "من أنتم؟" قال كبيرهم الذى رفع الكمامة من على فمه : "اخرس يا قاتل ، هؤلاء ضحاياك" ، سخر قائلا : "ألم يكن فيكم رجل واحد أو امرأة ترفض غدرى؟! أىُّ ضعفٍ أذّلكم لهذه الدرجة؟! أبسبب رزم الأموال تنهشون براءتى؟! أىُّ سوادٍ فاحم ملأ قلوبكم ؟!!"

قال كبيرهم : "دافع عن نفسك يا قاتل وإلاّ أغلقنا فمك مرّة أخرى ، قال المتهم : "القاتل من يغتال البراءة ، كيف طاوعتكم قلوبكم على الدخول بمجرى الشّر لتقتلوا الخير داخلكم ، ألم تسألوا أنفسكم من كان يعرض زوجاته لأعاشرهنَّ وأرتكب الفاحشة؟!" قال وهم مذهولون : "أيّة دناءة قابلتم بها عطائى؟!"

"كنت أستمتع بحبس نفسى من أجل إطعام أطفالكم ، لتظلُّوا أحرارًا دون مسئولية ، ومع ذلك كنتم تأتون خانعين ، تطلبون جبروتى ونقودى ، تقزّمتم أمامى نتيجة جرائمكم" .

"كان أملى أن يغيب عن محاكمة الميدان شخص واحد من الحى ، وصرخ : أيها الغادرون أتطعنون قلبى الملىء بحبَّكم ، أنسيتم من كان يسلبنى البراءة ؛ لأنظِّف تاريخه الملوَّث؟!" نظر إلى عبد النبى الفكهانى ، وقال له : "احكِ لهم مرَّة أخرى عن تعريسك مقابل نهب المال من ابنتك البريئة ، اسألوا سيدة الرقيقة أيها المجرمون إن كان لا يزال بينكم رجال ، كيف عاملتها كابنتى رغم أنّى شاهدت خيالكم بارتكابى الفاحشة ، طعنتوا طيبتها وروّعتوها بشرَّكم !"

قال كبيرهم : "أتريد أن تدين الجميع يا قاتل؟!" لم يرد ، نظر إلى جموع الضّحايا الأرقام فذُهلوا من قدرة القاتل على محو ذاكرتهم وأسمائهم ، قال القاتل مشيرًا على موسى القهوجى : "أنسيت زوجتك الأولى فهيمة التى كنت ترسلها لشقتى لأعاشرها وتسلب أموالى؟! اسألها يا غشّاش كيف عاملتها كأختٍ رغم أنَّ ذاكرتك التى أراها الآن أمامى ، جعلتك تتخيل أنّنى تمكّنت من تفجير أنوثتها ، كانت فهيمة الطيبة مملوءة حبًا ، أصبحت صديقتى لأشفيها من ظلمك وغدرك".

نظر إليهم جميعًا ، وقال : "أتستطيعون أن تنظروا فى عينىّ الآن .. لن تجدوا إلا البراءة ، لكنَّ خيالكم المريض تصوَّر أنَّ نِنَّ عينى يمتلئ بجرائمكم ، لكنَّ الحقيقة أنكّم شهدتم أنفسكم ، وغدرتم بِنِنَّ عينى الذى قدَّم الحبَّ لكم ، ادّعيتم كذبًا أنَّ عينى مملوءة بالشر رغم أننّى رأيت

فى نِن عيونكم الحبَّ والطهر والبهجة ، فأىُّ زيفٍ تمكّنتم به من تلويث سمعتى ، ونعتى بالقاتل؟!"

صرخ فيهم ، أرعبهم ، نزل كبيرهم ليفكّ قيوده ، وقال بعد أن تحرّر من كلّ جروحهم: "كم تحتاجون؟" ردّ فى خنوع : "مليون جنيه" ، فقال: "مليون ونصف المليون" ، وإياكم أن ترونى وجوهكم يا أندال" .

قبل أن يرحلوا قال للواطى : اقترب منِّى يا حمادة ، وانظر فى عينى ، واسأل رجاء زوجتك : "هل هزمتْ رجولتى وركبتْ فوقى بعد أن عرت فخذيها ، يوم أن أغلقت باب الشقة علينا؟ اسألها فأنا أرى ما بداخلك ، اظهر كرجل ولو لمرّة واحدة ، واسألها لأنّها ستقول إنهّا جلست أمامى لدقيقة ، اكتشفت براءتى ، قالت فى حياء : "بعد إذنك هدخل الحمّام" ، كانت تحكى لك وهى تبكى عن الأوضاع التى تعاشرنى بها لتعمق انكسارك وتركب فوقك وتعاشر خصمك الذى أحبَّها فى القرية البعيدة ، كنت أقول لها إنَّ زوجك طيب لا يستحقُّ منكِ الغدر ، كانت تقول باكية دمًا : "أنت طيب أوى يا أستاذ ... الواطى يطلب منِّى ممارسة الفاحشة معك ، لننال عطاياك!" قالت بحسرة ، وهى تبكى على نفسها وسط الميدان : "البرىء من الخيانة سوف ينعم فى النهاية بالأمان" .

صرخ كبيرهم : "كفاك يا متّهم حكايات ، أتريد أن تفقدنا الذّاكرة؟!" قال المتهم: "اسألوا أرواحكم هل يمكن لشخص يذوب فى البراءة ويبتغى مشاعركم ، أن يرتكب كلّ تلك الجرائم؟!"

بكت زوية الكئيبة أمام الجمع الخائف ، وقالت : "نعم هو القاتل أوهمنى بالحبَّ ، دخل نبض قلبى ، قرّر فجأة الخروج دون أن يعطينى إشارةً واحدة تدلّ على حياده . ماذا يمكن أن يُسمّى خداعه ، بعد أن لامس مشاعرى؟!"

قال : "يا زوية لكِ الله ، لكننى لست خالك أو أخاك لأساندك طوال العمر ، يجب أن تغفرى لنفسك لتسامحى الآخرين ويتعمّق الخير داخلك ، إنَّ القسوة تملأ قلبك ، وأنت تتمنَّين نظرة طيبة ، كنت أعطيكِ الأمان ، بينما عقلك يدور حول فرجكِ وقضيبى ، أبدًا لم أفكّر فيكِ كعاهرة رغم معاشرتِك كلَّ صباحٍ بعيونك" .

"لم أتخيَّل قط بعد أن رويت ريقك الناّشف أن تشمتى فى جوعى ، الشّىء الذى أذهلك أننى كباقى مجموعة المساواة لم أُعِر لأنوثتك اهتمامًا ، قلت لكِ فى اليوم الذى رفضت معاشرتكِ : "النساء الحنونات الراغبات فى المتعة والامتنان يعزفون ألحانى ، أنتِ تستحقين

الشفقة والاعتذار ، آمل أن يكفى انحنائى أمام الجميع لقلبك الذى رغب فى الحب ، ونكرته لارتباطى بامرأةٍ أخرى" .

الشىء الذى أذهل المتّهم أنّ الضّحايا الأرقام الذين لا يساوون فى سوق العمل إلا الإحصاء تمردوا بسبب كآبتك ، وأعلنوا أسماءهم المُضحكة رغم أنّ أمهاتهم أنجبتهم بأسماءٍ حقيقية ليس كأرقام .

حتى أبو ريالة القريب من قلبه ، بالرّغم من كونه مسخرة الجميع بسبب رذاذ فمه ، لم يتوقّع قط أن ينسى براءته بميدان الغدر ويرميه بالظّلم والنكران ، قال معتذرًا : أتمنى أن يحسّ الضّحايا الأرقام باحترامى لفقدانهم ذاكرتى ونسيانى أسماءهم المبهجة ، إنَّ الأرقام التى أُطلقت عليهم هى التى تدفعنا جميعًا لارتكاب الجرائم ، ونسبتها لآخرين ؛ لنبرر لأنفسنا الاستمرار فى الظّلم والكره . قال بحسرة : "إنَّ أسماءكم هى العلامة الوحيدة على اكتشاف الضّعف داخل قلوبكم" ، حين نطق فمه برقم المليون ونصف المليون تحوّل الجميع لأرقام ، فطُوبى للأرقام الضّحايا الذين حملت لهم كلّ الحب ونسيت أسماءهم!

ورغم أنّ السلطات حضرت معلنة اتهّامه بالقتل ، وتسلّم الجميع الثمن ، تذكر تلك الأحداث ؛ لتعينه على المرور من بينهم والنظر إليهم ، والعيش معهم متقبَّلاً جرائمهم ؛ ليعلن فى يومٍ ما الحقيقة كاملة .

هرولوا نحو بيوتهم وحواريهم كالخرفان يبغون الامتطاء والذّبح ، قال لنفسه بحزن : "الأبرياء الضحايا لم يستحقوا كل هذا الغدر والظلم" .

القِسْمُ الرّابع : البراءة

العار

بعد محاكمـة الميدان أغلـق المتّهم مكتب بيـع الأحـلام ، وتحـوّل عبـده المزوّر ، ويحيـى الواشـى ، وبطـرس الخسـيس ، وزهـران الـدنىء ، وحمـادة الـواطى الـي لأرقـام ، دخلـوا جميعًا بإرادتـهم حجرة الأرقام بعد ابتعاد القاتل الذى كان يعطيهم الحبّ دون مقابل .

لكـن الخسـيس والـدنىء سـرعان مـا اسسـو مكتبًـا لبيـع الأحـلام الكاذبـة .. سـخر الجميـع قـائلين : "أحـلام كاذبـة أو حقيقـة ، مـا الفـرق . المهـم أنهّـم يبيعـون الأحـلام ، والأحـلام فـى النَّهاية هي احلام !"

قال الدنىء والخسيس : "سوف نأخذ كل العطايا وحدنا" ، حوّلوا الجميـع لضـحايا ، حـاول مسـعد الحـلاق ، وبـدر الفـوال استعادة البـهجـة وإعـادة نشـر الفرحـة فـي الحـي وهـم يتحـدثون بسخرية عن المتّهم الذى فضح جرائم الجميع ، تركت روحية زوجة عبد النبّى الفكهانى وسيدة ابنته الفراشة بعد حبسه ، وتفرّغتا للخدمة فى البيوت .

عادت عديلة زوجة موسى الثانية لعملها فى الملهى الليلى ، بعد أن فتحت المعلمة فهيمة زوجة موسى القهوجى المقهى ، وأصبحت سيّدة الحى التى تنشر الـدفء بين المتردَّدين علـى المقهـى ، كـان جمالهـا ورائحـة أنوثتهـا مازالـت تمـلأ الشّـارع ، طـردت غريمتهـا لتعـود لعملهـا الاول.

لكنّ الجميـع تـذكّر بدهشـةٍ الخنـوع الـذى أصـابهم يـوم محاكمـة الميـدان ، وهـم متوجَّـهون للميدان للأخذ بالثّأر ، ففُجِعوا بجرائمـه التـى عرضـها العـاملون معـه ، إلاّ أنـهّم قبلـوا الـثّمن فـى النـهاية ، وعادوا يمارسون دورهم من جديدٍ فى إنتاج الغدر .

قالت المعلمة فهيمة: "الزمّن وحده كفيل بإعادة الجميع لضميرهم" ، أنـهت حديثها بحيرةٍ ، وسألتهم : "كيف يمكن إعادتهم بعد تجاوزهم الشر ، وخرق نـاموس الحياة المحظور؟!"

رحلت عزيزة الكوافيرة عن الحى ، وقالت بشجنٍ ظلّوا جميعًا يتذكّرونـه : "المتهم لم يكن لـه ذنب ، نحن الذين طمعنا فى أمواله رغم إخلاصه لرائحتنا ، لم تغفر له قلوبنـا القاسـية" ، أنـهت حديثها بالتعجب ، حينما قالت : "إنـها لعنة الأموال والطمع التى أصابتنا جميعًا" .

الجميع تحدّث كضحايا ، كأنّ مرتكب الجرائم التى عرضوها يوم محاكمة الميدان لأشخاصٍ غيرهم ، قال ابن عمدة العصّار : "كان يجب الاعتراف لتطهير الحى من الخطايا ، كان يجب أن يدفع المتّهم الثمّن لأنّه المحايد رغم كلّ قوّته ، الجميع قدمّ له بإرادته كلّ شىء ، لم يرفض قط العطايا التى قدّموها ، سلب روح البهجة من الأهل والجيران دون أن يطلب من أحدٍ شيئًا ، قال فى لهجة تحدٍّ : "حين يخرج موسى من السجن ، سأفجر بطنه بوسط الشارع" .

عمل عبده المزوّر بمكتب الخسيس ، واكتشف أنّ المتهم الغادر أرحم كثيرًا ، حوّل الخسيس الجميع لأرقام ، لم يحسّ المترددون على مكتبه بأية مشاعر أو أحلامٍ حقيقية ، لكنَّهم تذكّروا حكمة الاجداد : "لا فرق بين الأحلام!"

ذُهِل يحيى الواشى من خسّة بطرس ، فقبع بمكتبه يشرب المخدّرات ، يخانق خيالاته بعد أن تركتاه زوجتاه الاثنتان ينام كالكلب بالمكتب ، استعاد الجميع ذاكرة الأمّ الطيبة التى شقيت عليه ، ولم يردّ لها الجميل فاستحق اللعنة .

كانت أمه صديقة الجميلة بائعة اللبن تصحو من الفجر ، تدور على شقق الحى ، تقدَّم لهم الحليب ، تسحب يحيى بيديها حتىّ لا ينام بالحجرة وحيدًا ، تتركه أمام إحدى الشقق ، وتقول له : "لا تتحرّك من هنا حتى أعود ، تدخل لتصب لزخارى الصّائغ اللبن فى كازرولة المطبخ ، يدخل وراءها يجدها بحجرة زخارى تتأوّه من اللّذة ، وتصرخ بعشق فى صوتٍ غير مسموع : "بسرعة يا زخارى الواد واقف برّه ، شاهدها وهى عارية تحته تتأوّه من العشق ، قال زخارى ، وهو يودّعها على باب الحجرة : "سوف أسلم بالأزهر ، وأتزوجك يا صديقة لا تخافى ، قالت فى دلالٍ وخلاعة لم يكن يتوقّعها قط من أمّه : "لمّا نشوف يا شيخ" .

تعلّم اللوع وفهم الدنيا كخبيرٍ فى الخيانة بعد أن تركه أبوه بخيانة ، وغادر القرية البعيدة للمدينة مع امرأةٍ أخرى ، ومارست الأم الفاحشة مع المسيحى ، حين مات زخارى تاركًا مشاهد الخلاعة لأمّه صديقة تلاحقه ، لم يغفر لها أبدًا ، فى اليوم الأخير الذى شاهدها ميتة ، قال بصمتٍ مغلول : "ذهبت بعارها للأبد ، لا يجوز عليها إلا الرحمة" ، وحين طرده الخسيس من مكتبه قال : "النصارى الكلاب لن أغفر أبدًا لهم !"

الجميع أطلق سهام الشر ، ودخلو مجارى الموت دون أن يدرى ؛ ليطعنو المتّهم الذى ظلّ طوال عمره يقدّم لهم الأمل دون مقابل ، عميان القلب تصوروا أن بإمكانهم سرقة مشاعره

الطيّبة ، تجمّعوا بالميدان ليهينوا براءته ، لفُّوا بجثته المقيّدة حوارى الحى ؛ ليعلنوا اغتياله ويسلّموه بفجر للسلطات .

قالت زوبة الكئيبة ، وهى ترحل من الحى بعد أن عملت بمكتب بيع أحلام الخسيس: "إنَّ المتّهم كان أقوى منّا جميعًا ؛ لأنّه استطاع أن يقول فى يومٍ ما لن أستكمل .. لن أدفع وأعلن توبته" .

رفضنا استيعاب شرفه المستعاد ؛ لأننا متأكَّدون أنَّ الخسَّة والدناءة والتزوير والوشاية والقسوة هى صفات لصيقة بنا ، ولا يمكن الاستغناء عنها ، غدرنا به لنشرب مشاعره المتدفقة ، استحققنا اللعنة ، ولم يفهم البرىء أنّ الخير لا يمكن أن يعيش وسط شرورنا .

قالت للمعلّمة فهيمة زوجة القهوجى : "اطلبى الطّلاق من موسى ، لا يستحقّ الكلب أن ترسلى له النقّود والطعام بالسجن" ، تعجّبت فهيمة من صوتها الأجش ، وقالت بعد أن ودّعتها : "تزع الحب من قلبها للأبد ، أىُّ مجرم خطف الوداعة من قلبها وجفف مشاعرها؟!!"

حين شاهد الناس المتهم مرة أخرى جالسًا على مقهى المعلمة فهيمة قالوا : "عاد من جديد للثّأر منا ، كان يجلس على كرسيه يدخّن الشّيشة وينظر إليهم ببهجةٍ أدهشتهم ، ويقول لهم فى صمت : "أنا الكاذب الواطى الخسيس وأنتم البشر الطيبون ، استعيدوا حياتكم ، انشروا الخير ، املأوا البيوت بالضّحكات لتسعدوا زوجاتكم وأولادكم" ، قال لبدر الفّوال حين رفض أن يأخذ ثمن الفول : "أنا نسيت الماضى ، إحنا ولاد النهاردة ، اقبض الثمن كالآخرين ولا تخف " ، كان سعيدًا لأنهم حررّوه من جرائمهم .

الموت

فُوجئ المتّهم ليلة القبض على موسى القهوجى وعبد النبى الفكهانى ، وإلقائهم بالسجن بإعادة نشر الخديعة مّرةً أخرى بالحى ، شاهد الصبية يقلدون القاتل ليتحايلوا على دفع الثمن ، كانت البنات الصغيرات اللاتى يملأن الشّارع بروائح الأنوثة تثير البهجة ، مع ذلك أحسّ بخفقان قلبه وهو يدخل شقّته ، لم يفهم سر سرقة روحه هذه الليلة ، أحس بالاكتئاب وكأنّه يقترب من الموت .

صعد شقته ، أغلق بابها ، تذكّر الخسيس وهو يخفى حكاية أخته الجميلة التى عاشرت حسن الميكانيكى الفاسقة ، خانت دينها من أجل رغباتها الدنيئة ، حين أمسكوا بها وهى تعاشر حسن بحجرة أمها ، قالت مارسيل أخته : "بلغتُ ثلاثين عامًا ولم تلمسنى يد رجل ، أحتاج للحنان "، تذكّر بطرس صوت أبيه بشرى حين قال : "لماذا حسن الميكانيكى؟ أنتِ لا تعرفين المسلمين ماذا يفعلون بالزّانية" ، ردّ حسن وقال للوالد : "سوف أتزوّجها ، ديننا يبيح نكاح النّصارى" ، صرخت أمه مستغيثة بدفء مارسيل : "سيأخذونك دون دفع المهر " ، سحبها حسن بملابسها الملوّثة بدم الخيانة من بيت أهلها دون أن يهمسوا خوفًا من الفضيحة ، ذهب لمكتب المأذون الشرعى ، تزوّجها دون أن تطلق فتيات الحى زغرودة واحدة ، قال المتهم للخسيس يوم الغدر : "لست حسن الغاصب ولا مارسيل الدافئة ، اتركنى لحال سبيلى وابحث عن حقّك بمكانٍ آخر" .

تذكّر الدنىء فى المشهد الأخير وهو يقول : "أتريد الِفرار يا قاتل دون أن أُعيد لأبى كرامته التى مرمطها النّاس فى الحى؟!"

سأل القاتل : "هل سمعت حكايات عن معاشرة والدك بحجز السلطات" ، كان المشردون يحكون على المقهى كيف يدخل أبى بإرداته الحجز كل يوم ، يختار أحدهم ليستمتع بهم وهم يركبونه ، هل حكوا عن والدك أنه لم يعاشر أمّك ولا مرة واحدة؟ هل سألت أمّك المريضة المكلولة مرة واحدة : "أين أبى ولم ترد؟" صرخ القاتل بالدنىء بصوتٍ عالٍ ليطرده من الشّقة : "اهرب بعيدًا يا بن الحرام ، لا أحتاج آهاتك وقهرك" .

دخل الحمّام فُوجئ بعودتهم مرة ثانية ، صرخ فيهم : "أنا دفعت كثيرًا ، ناشدهم أن يذهبوا بعيدًا عنه" ، قال بصوتٍ عالٍ : "لستم مكتوبين على بطاقتى" ، تركهم ودخل ينام ، دقت السّاعة الثامنة ، نام على غير عادته أول الليل ليشاهد بنفسه مصير الحى الذى فرّط فى

المشاعر الطيبة ، لولا حكمة الجد العجوز الذى انتشله فى اللحظة الأخيرة لتجاوزت جثث المقتولين شوارع ومحلاّت الحى المئات ، كان ثأره يُحتَّم عليه قتلهم جميعًا .

حين غطّ بالنّوم وجد نفسه يسير وحيدًا بمدينةٍ أخرى مملوءة بالحياة والعشق ، شاهد زوبة والدنىء ، وبعض الأرقام الضّحايا يجلسون على مقهىً مملوءٍ بالضّجيج ، نظر إليهم وسار بعيدًا عنهم وراء النوّر الذى يملأ الحوارى ، كانت الحفلات المُقامة فى المدينة الغريبة تثير البهجة ، صمم على معرفة مصدر النور.

شاهد بُحَيْرَةً كبيرة مكتوبًا عليها "مياه المحياة" ، التفَّ النّاسُ حولها ينشدون الخلاص ، غطّى النوّر مياه البحيرة ، تطاير على الجميع فيضحك الأطفال وتزغرد النِّساء ، اقترب من البحيرة ليشرب ، فُوجئ بالجدّ العجوز يحذره قائلاً : "انسَ العطش ، ليست هذه مياهًا للمحياة .. إياك والخديعة واخْتَفَى" .

فُوجئ بتحوّل البشر المبتهجين حوله إلى شياطين محاولين التهامه لرفضه شرب "مياه المحياة" ، جروا وراءه ، كانوا بالمئات ، شاهد وسطهم عبد النبى الفكهانى وموسى القهوجى والعصّار وعبده المزوّر ويحيى الواشى والخسيس والدنىء والواطى ؛ لكنّه لم يلمح عزيزة الكوافيرة ، أو المعلّمة فهيمة أو روحية زوجة الفكهانى ، أو شوقية زوجة يحيى الواشى .

فجأة وجد نفسه خارج المدينة يسير وحيدًا وسط أراضٍ زراعية بجوار ترعةٍ كبيرة مُحاطة بالسَّكك الحديدية ، كان يمشى بين القضبان ، شاهد صبية وبناتٍ مبتهجين بالزّهور ، سألهم : "أين المدينة؟" قالوا : "إنك تتوسّط مدينتى الحياة والموت" ، وسألونى : "هل أنت سائح؟" قلت : "أنا غريب" ، قالوا : "مدينة الموتى على يمين الترعة ، ومدينة الحياة على يسارها اختر إحداهما لم يعد أمامك بدائل" .

دفعه فضوله لاختيار مدينة الموتى ، حينما قرر ذلك وجد نفسه تحت جبلٍ عالٍ على شكل تمثال منحوتٍ فى الحجر ، دقّق النظّر كان التمثال يرفع يديه ليحيط المدينة كلّها بقلبه ، شاهد النّاس تحت أقدامه تُهرول ، هطل المطر ، تساقطت بعض الحجارة على رءوسهم ، جرى معهم محاولاً النجاة ، وجد نفسه داخل مساكن أُقيمت تحت الأرض بنظامٍ غريب ، بوّابات المساكن مفتوحة ، لتظهر حجراتها ومطابخها بأبوابها المتهالكة .

فى مساكن أخرى نزع اللّصوص الأبواب والشبابيك ، لكنَّ الأتربة تملأ المكان ، تحوّلت وجوه النّاس بسبب الغبار إلى لون التّراب وأصبحوا شبه الرمل ، ومع ذلك كانت الشوارع نظيفة

، لم يلمح إلا السّحالى والثّعابين تجرى يمينًا وشمالاً تبحث عن بعضها ؛ لتتعايش فى المدينة المهجورة .

سمع الفكهانى يقول للمجتمعين حوله : "هذا مسكن عزيزة الكوافيرة ، تركته وغادرت لمدينة الحياة ، سوف أشتريه بألف جنيه ، قالت وهى تهجرنا : لن أعود إليكم أبدًا ، وضحك بهستريا أفزعت الأموات!"

فوجئ بعساكر يرتدون زيًا أخضر ، وكتبوا على جبينهم "أبرياء" يحرسون بعض القبابات ، قال لهم متوسلاً : "كيف أخرج من المدينة ؟" قالوا : "يمكنك أن تجرى ثلاثين كيلو فى الأنفاق داخل الحوارى ؛ لتشاهد مداخل المساكن ، وتتعرف على أهاليها وتمسح التراب عن وجوههم ليفتخروا بك ، عندما تصل لآخر مسكن فى النفق ، تجد نفسك مرة أَخرى بجوار السَّكك الزَّراعية والحديدية وسط الزراعات ، فتعلم أنك خرجت حيًّا ، لا تنسَ وجوهنا أبدًا نحن حرّاس الأضرحة" .

شاهد عساكر آخرين يرتدون زيًّا أسود ، وكتبوا على جبينهم "أشرار" يحرسون مسكنًا كبيرًا مبنيًا بسياجٍ حديدية وسط المدينة المهجورة ، حين اقترب منهم قالوا : "سوف نقتلك لا تسألنا ، نحن مجهولون وغرباء ، ولا نعرف إلا لغة التحذير والقتل" .

صرخ الجد العجوز فيه : "هؤلاء حراس مسكن الشّيطان ، لماذا نظرت إلى عيونهم؟" ونصحه بالابتعاد عنهم ، وسأله : "لماذا أنت هنا اخرج بسرعة ، المدينة سوف تنهار ويقع الجبل بعد ساعتين" ، جرى سريعًا لاجتياز المساكن المتهدَّمة خلفه ، خلّفت أنقاضها غبارًا ملأ الحوارى ومداخل بواباتها المظلمة ، عمَّ الظلام الدّامس بسبب الدمَار ، قال العجوز : "أسرِع ليس هناك وقت" ، المساكن ستتحوّل لمدافن ، شدّه وطار به فى الشّوارع والحوارى المظلمة المتهدَّمة ، وألقاه بجوار سكّة الحديد وسط الأراضى الزراعية ، فتأكَّد أنه مازال حيًا .

شاهد أباه وعمّه وإخوته وأبناءهم يشُعلون النّار فى ليل القرية البعيدة خلف الساقية ويشوون البطاطا ، كانت الأراضى المزروعة بالذرة تبث التوحّش ، فوجئ برجلٍ متجهِّمٍ يقول أمام الجميع : "رأيتك بالمدينة الأثرية" ، ردّ عليه : "كيف عرفت" ، قال : "إنّ تراب المدافن مازال عالقا بوجهك" ، رحل الرجل بعيدًا وأشهر مسدّسه ، وركب حصانًا ونزل من عليه حين راه وسط اهله ، فوجئ بأخيه الكبير يقترب من الرّجل الغريب ، وعلى غير توقّع يخُرج طبنجته

ويطلق رصاصاته فى مواجهته ، بادله الرّجل إطلاق الرّصاص ، تفادوا الطّلقات وهى تسير من وسطهم مشتعلة .

اقترب أخوه من الرجل حتّى أصبح فى المواجهة ، تزايد إطلاق الرّصاص ، انطلق مسرعًا فوق رءوسهم وأكتافهم ، قال الرّجل الغريب لأخيه : "تفادِ أهلك ، لا تطلق رصاصك مرّةً أخرى فوق رأسى ، إنَّ أختك كانت فى منزلنا ليلة الأمس " ، وقال لأخى بودّ : "نحن أقارب" ، ردّ أخوه : "اتفضل ، لم أعرف أنكّ القاتل ، فُوجئ بعمَّه يقوم من جواره ، ويختفى دون أن يراه أحد بحقل الذرة ، فقال له : "أين تذهب يا عمَّى" ، لم يرد عليه وسار باتجاه الظّلام ، أوقف الأخ الكبير الساقية ، وقال : "حلوا البقرة من السّاقية .. الغيط شرب" ، قال الجدّ العجوز: "اتركهم حتّى يأكلوا البطاطا " ، نظر إلى عيون الجد المختفى ، الذى تحسّر على أهله ، وقال : "عرفوا القاتل ، ولم يبلغوا السلطات وقبضوا الثّمن" .

حين صحا فى الصباح فوجئ بالجيران وأهل الحىّ والعاملين بمكتب الأحلام الحقيقة يجتمعون حول المنزل محاولين كسر الباب ، قالوا بصوتٍ جماعىّ فى وجهه : "أنت مازلت القاتل" ، لماذا لا توزِّع علينا العطايا" ، قال بصرامةٍ هزمتهم : "أعلنت التوبة" ، قالوا : "أين سنذهب من بعدك؟ كيف سنعيش؟" قال بثقة : "سددّت الديّن ، أنا برىء ، ليس لجرائمكم علاج عندى" .

حين أعيتهم الحيل تركوه ، فنظر من بلكونة الشّقة على جمعهم الكبير وهم يملأون الشوارع ، وقال : "مازال أملهم فى السّلب والنّهب كبيرًا ، عاد للسّرير مقرّرًا النوّم مرّةً أخرى دون اهتمامٍ بضجيجهم ؛ لكن جدّه العجوز اعترض طريقه ، وقال بودّ : "ادفع الثمن لتنال البراءة ، احرق آلة الأذى واكسب نفسك ، الأبرياء الضحايا الأرقام يستحقّون النّور" .

الرّحمة

خدع القاتل الجميع بإعلان التوبة ، من يستطيع أن يحيا مبتغيًا الحبّ ، ويدّعى سداد الثمن؟ ... ردّد الجميع : "الثمن باهظ لا يستطيع أحد دفعه" ، استمرّ القاتل يعيش بالحى منتظرًا لحظة الانتقام ، قال لنفسه : "كلُّ شخصٍ أقابله منهم سيُقتل ، الدور على من تلمحه عينى قبل الآخر" .

قابل موسى القهوجى الذى هرب من السّجن ، وتزوّج بعاهرةٍ ليضيف لمطارديه ابن عمدة العصّار الذى قتل والده ، كانت بطة زوجته الثّالثة تقوم بالإنفاق عليه بعد أن استولت فهيمة على البيت والمقهى ، وطردت عدّولة لتعمل بالملهى الليلى ، قال المتّهم لموسى حين قابله خارج الحى : "أحتاج مسدّسًا ، أعطاه أوصاف مسدّس أخيه الذى شاهده بحُلم اللّيلة السابقة ، قرر قتل موسى به لأنّه أوّل خلقةٍ رآها فى الصباح" .

سار بالحى يخطّط لمقتل القهوجى الهارب ، ذهب آخر الليل عند زوجته الثّالثة ليتسلّم الأمانة ، قابلته امرأةُ شابة ، وقالت بدلال : "اتفضل يا أستاذ ، كان يعرف أنّ موسى الذى قبل الشرّ منذ ولادته يعرض عليه بطة زوجته الثالثة ، قال موسى : "الطلب جاهز هتأخّر عليك ساعة ، الثمّن معاك" ردّ عليه : لا تتأخّر زوجتك أمانة حتّى تعود" .

عرف الجميع أنّ موسى عاد للعمل بعد أن أعطته السّلطات رقمًا ليطهّروا تاريخه الملوّث بالغشّ ، حين نظر القاتل إلى بطاقته عرف أن اسمه الجديد حمو القوّاد .

لم تضِع المرأة الوقت ، سحبته من يديه ، فتّشت جيوبه ، قبضت الثمّن مقدمًا ، جردّته من ملابسه ، قالت بحسرة : "أكلّ هذه الجروح بجسدك وتشع نورًا؟!! قضت ساعة معه كدهر ، استطاع القاتل أن يُعيد إنسانيتها التى هربت ، قالت له ودقات الباب المتسارعة تعلن وصول موسى الهارب : "أنا عبدتك" ، قال وهو يلبس بنطاله : "العبيد تحرروا ، سوف تعيشين بأمانٍ منذ الغد" .

عدّ موسى المبلغ ووضعه مع الأرقام الضحايا فى جيبه ، وقال لـ بطة زوجته وهو يودّع القاتل : "يدخل البيت فى أى وقت ، أمّنته كثيرًا على عمرى ، إنّه صديقى المخلص" ، ردّت الزوجة : "لا تتأخّر علينا" ، قالتها بفُجرٍ شعر به موسى .

ذهب للخلاء ، جرّب المسدس واطمأن على قوّته وكاتم الصوت ، عاد لمنزله ، دخل الحمّام جاءه الجدّ العجوز ، وسأله : "من أنت؟" لم يردّ عليه ، حين كرّر العجوز سؤاله صرخ فيه : "أنا القاتل؟"

دخل حجرته لينام ، وضع المسدّس تحت المخدّة ، حدّد ساعة الجريمة الجديدة ونام مستمعتًا بعودة القاتل ، شاهد موسى القهوجى غارقًا بدمه وأهل الحى اجتمعوا حول جثته مملوئين بالخنوع ، حين شاهدوا القاتل أشاروا على الميت وقالوا : "يستاهل الحرق" .

تركهم وعاد لمنزل أسرته القديم بالقرية البعيدة فوجئ بوجهها المملوء بياضًا ، يتوسله ليوقف الدم ، الوحيدة التى تعرفه فى هذا العالم ، عادت من الموت ، تناشده العودة لبراءته ، الوحيدة التى تعلم أنّه البرىء من كلّ جرائمهم ، تستعطفه أن يعود لضميره ويغفر لأهل الحى والعاملين بمكتب بيع الأحلام ، وقالت : "سامحهم لتعود البراءة " ، جلست وسط البيت مُحاطة بالناس والأهل ، وقالت : "كفاياك يا خويا ، إحنا أهلك وناسك ، بتدوّر على إيه إحنا معاك ، وعارفين إن قلبك مليان براءة" ، كان أخوه يجلس قبالته ، ويقول لها : "قوليله ياما .. ياما قولتله : ارجع مفيش فايدة ، اللى فى دماغه حاجة واحدة ، الثأر.. سألت نفسى كثيرًا : "من جرحه لدرجة الموت؟ لكننّى لم أجد الإجابة " ، قالت أمّه بفخرٍ لوقف استهجانه : "اخرس يا كبير يا وسخ ، نسيت دورك إنت بدل أبوهم ، إزاى سيبت الحى والناس ياكلوا لحمه" ، نظرت ناحيتى ، وقالت : "دول غلابة يا خويا اعف عنهم ، طبطب عليهم ، قابلهم بودًّ فى الشارع ، افتكر روحية وشوقية الستات الرّائعات اللى أحبّوا براءتك ، ارأف بحال الضّحايا الأرقام ، ارجع وعيد أساميهم اللى أتولدوا بيها " .

فوجئت بجدتى تجلس معنا . قالت أمّى لها : "يامَّه والله ما أخدت حاجة زيك ، المهم يعود الحب بينهم تانى ، نفسى أشوفه يضاحك مسعد الحلاّق وبدر الفوّال ، ويطلب من رجب المكوجى رفع صوت التسجيل ليطرب الحى ".

كان النّور يملأ المنزل والشّارع ، ابتهج الناس بعودة أمّى الرقيقة الرائعة ، اندهشوا لتحوّل جدّتى القوية وقبولها للحبّ بديلاً عن الغلّ ، سألها الناس بسخرية : "أين قسوتك يا حاجة زينب؟" قالت : "المهم الحبّ يرجع يا ولاد ، اشتاق الحى إلى صوت ضحكاتكم العالية " .

صحا من نومه قبل الفجر ، تذكّر وعده لبطّة زوجة موسى حين ضاجعها فى أوّل الليل وتأوّهت "لا تقلقى سيدفع موسى الليلة الثمّن " تذكر قعدة الأنس بعد ساعة بمنزل القهوجى

الهارب ، وبطة منتشية تخدَّم عليهم ، فجأة سيُخرج القاتل مسّدسه ويتخلّص من موسى للأبد ، حين يأتى أهل الحى فى الصّباح سيتهمون دون شك ابن عمدة العصار ليتم عتق بطة ، تذكر صوت أمّه وهى تصرخ : "اعف عنهم يا خويا" ، فتوقّف الدّم برأسه ، قام من على السّرير ، دخل الحمّام ، فتح المياه ، نزلت على ظهره وأردافه طهّرته ، كانت دموع أمّه تغرق ملابسه ، تحسّسها بدفءٍ ونسى كلّ الأحداث التى مرّ بها ، شاهد بشاير العصافير تملأ الشقة ، كانت أمهات البشاير الشبيهة بصديقة أمّ الواشى بائعة اللبّن تغنَّى بصوتٍ عالٍ ، قال بحبَ لنفسه بصوتٍ مرتفع مبتهجًا بعد أن تحسّس قلبه : "أنت مازلت موجودًا ! ملأ النور قلبه ، قذف بآلة الأذى بصرف المنزل لتختفى للأبد .

الرَّجاء

انبهر بنفسه وبخطواته الواثقة ، والنّور يملأ وجهه ، وهو ينزل درجات سُلّم منزله ، كأنَّ شخصًا آخر هو من رآه النّاس فى هذا اليوم .

استقبلته المعلّمة فهيمة بنفسها أمام المقهى ، رفعت الكرسى ومسحت التّراب من عليه ، وقالت بدفءٍ : "عامل إيه يا خويا؟" قلبّت السُّكَّر بنفسها فى الشّاى ، وقالت وهى ترفع الكوب لفمه : "اشرب بالهنا والشَّفا " .

بكت روحية زوجة الفكهانى بحضنه ، بعد قررها ترك خدمة البيوت ، ملأت الأقفاص بالفاكهة ، ووقفت تبيعها على ناصية الشّارع ، أعادت للحىَّ رائحة البرتقال ، وقالت : "والله أبدًا يا أستاذ لازم تذوق طعم العنب بتاعى علشان تبارك الفاكهة" .

حضنته شوقية زوجة يحيى الواشى ، وقبّلته فى رأسه ، وقالت : "أَظْهِر براءتك ، وجَلْجِل بضحكتك ؛ ليختفى الغدر للأبد" ، أعطته علبة حلويات ، وحِلفت بالإيمان بأنـّها عجنتها بيديها ليتذوق طعم الحبّ من يديها الرقيقتين .

أحضرت أنيسة زوجة رجب المكوجى الذى مات فى حادث سيّارة الكرسى الوحيد بالمحل ، وقالت : "اجلس أمام دكّانى ليتفرّج النّاس على جمال ملابسك التى أغسلها وأطبّقها بيدى ، ألوانك الزّاهية تُشْعِرُنى بالفخر" .

أصّرت عزيزة الكوافيرة التى عادت للحى على دخوله المحل ، وقالت : "لن تمرّ من الشارع دون أن تعطّر رائحة الهواء داخل الكوافير ، ألهب حياءه البنات والنِّساء اللاتى يملأن المحل ، تمنَّين أن يجلس العمر كلّه بجواره .

كان مأخوذًا بكلِّ هذا الدّفء المحيط بالأهالى المبتهجين بالودَّ المنتشر بالحىّ ، عادت "بشاير العصافير" ترفرف من جديد كلّما تقدّم بخطواته بالشّارع ، أمّهات العصافير تأخذهم فى حضنها تعلّمهم التقاط حبّات البراءة من الأرض ، تأكلها البشاير لتدخل مشاعرِها فترفرف مذهولةً بالحب .

لمح بطة تسير متأبّطة يد ابن عمدة العصّار فعلم أنّ موسى القوّاد الهارب دفع الثّمن .

شاهد يحيى الواشى يكلّم نفسه بصوتٍ مسموع ، وهو يجلس على المقهى وسط الشّارع ، ويقول : "كانت أمّى شريفة و أمينة العانس لم تغسل عارى ، وأختى البريئة استحقّت الأمان ، لكن شوقية كسبت الحى ، كيف تركتُ نفسى للوساوس لأشك بأمّى ، تركتها للموت محسورة على جهدها الضّائع ، كانت صديقة تستحقُ الزَّواج مرّةً أخرى بمسلم " ، قال لنفسه : "دفع يحيى الثّمن غاليًا".

أعادت ضحكته للمجتمعين حول عربة بدر الفوّال الحياة ، تناول الجميع الفول والبصل واللّيمون والسلاطة بلذّةٍ أذهلت الفوّال ، فقال للمتّهم : "الضّحايا نسوا أرقامهم ، وأصبحت أسماؤهم رمزًا لكفاحهم" ، تفاخر ابنه قائلاً : "زوبة أخذت شهادة كبيرة ، وهاجرت لتدريس الحبِّ فى الجامعات البعيدة!!"

أكّد مسعد الحلاّق حين رآه بأنّ وجهه يشبه القمر فى اكتماله ، أمسك المشط والمقصّ بوسط الشارع ؛ ليزيح شعرة طويلة عن عينه ، وقال : "أخذوا جميعًا جزاءهم ، قبضت السّلطات صباح اليوم على المزوَّر والخسيس والدنىء بتهمة الأحلام الكاذبة ، فعرف الجميع الفرق بين الأحلام الحقيقية والأحلام الكاذبة" .

أكّد أبو ريالة من داخل محل مسعد بعد أن نظر إليه ببراءةٍ ، وقال دون أن يتطاير الرذاذ من فمه : "الواطى مات بالحسرة بعد أن طلّقته رجاء ، وتزوّجت بالرّجل الشهم الذى ظلَّ يعشقها وهى على ذمّته سنوات" .

عادت روحه وهو يدخل شقّته ، قال لنفسه : "جيراني الطيبين المملوئين حبّا يستحقُّون الحياة " ، قرّر تغيير أثاث البيت ولون حوائط الحجرات وتغيير الحمّام ، قال لنفسه وصورة الجدّ العجوز تملأ الجدران القديمة : " كان رفيقاً أمينًا لم يغب عنَّى يومًا واحدًا ، استطاع بمهارةٍ أن يُطَهَّرنى ويحوَّلنى لمقاومٍ عنيدٍ للشّرَّ " ، قال بصوتٍ عالٍ موجّهًا كلامه لطيف الشّيخ : "كنت نعم الصّديق ، لولاك لفقدنا أجمل ما فينا وارتكبنا الفاحشة ".

علّق ملابسه خلف باب الحجرة مبتسمًا ، دخل سريره فى رضا ، لم يأته هذا الإحساس منذ زمنٍ بعيد ، راح فى النوم معانقًا قلب أمَّه الأبيض لينعم بالبراءة .

اتخذت العلاقات بين شمال البحر الأبيض المتوسط وجنوبه أشكالًا متعددة، غير أنها لم تنلْ التقدير التاريخي الكافي - من جانب التناول - من قِبل المؤرخين على مر العصور، وتُعدّ الحقبة الزمنية موضع الدراسة في هذا الكتاب - ما بين فتح القسطنطينية (1453) على يد محمد الفاتح، والحملة الفرنسية على مصر (1798) التي سبقها استيلاء "نابليون بونابرت" على جزيرة مالطا - أهم الفترات في تاريخ العلاقات بين ضفّتي المتوسط - الشمال المسيحي والجنوب المسلم الواقع تحت الوصاية العثمانية؛ إذ كان الصراع غاية في الشراسة

Cover design by: Alaa Elnewehy

المتهم

كرم صابر

صفصافة 2011


SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
www.sefsafa.com